عثمان بعاج

قربان زحل

رواية



نشرت هذه الرواية عبر منصة Gumroad، وهي منصة تدعم المبدعين المستقلين وتمنحهم القدرة على نشر أعمالهم والوصول مباشرة إلى جمهورهم. وقد اخترت هذا المسار إيمانا بأهمية النشر المستقل وإتاحة المحتوى للقراء بأبسط الطرق وأكثرها مباشرة. وإذا كنت من محبي الكتب الورقية، فبإمكانك طباعة هذه النسخة للاستخدام الشخصي والاستمتاع بها بالطريقة التي تفضلها.

العنوان: قربان زحل

المؤلف: عثمان بعاج

تصميم/رسم الغلاف: عثمان بعاج

نُشر في يونيو 2026



عثمان بعاج، المؤلف

لم تبدأ هذه الرواية كفكرة، بل كحاجة... كبحث مُلحّ عن تفسير لحلم مزعج (كابوس).

في نسختها الأولى، لم أكن أكتب حكاية، بل كنت أطارِد كابوسا.

كابوس لم يكتفِ بأن يزورني عابرا، بل أصرّ أن يقيم. كل ليلة، بنفس التفاصيل، بنفس الإحساس الثقيل الذي يسبق الاستيقاظ.

تخيّل أن تعيش ذلك لأشهر، لا لأيام. أن تحفظ الخوف كما تحفظ ملامح وجهك.

كنت أكتب لأفهم. أكتب لأفكّ لغز هذا الكابوس. ثم، فجأة... اختفى.

لا نهاية، لا تفسير، لا وداع. كأنه لم يكن.

لكنه لم يرحل فارغ اليدين؛ ترك خلفه شيئًا آخر.

ترك عوالم مفتوحة، وشخصيات لم تكتمل بعد، أنفاسها معلّقة بين ما كُتب وما لم يُكتب.

عدتُ إليها من جديد، لكنني لم أعد الشخص نفسه.

ولا كانت هي الرواية نفسها. أعدت بناءها، تفكيكها، إعادة تخيّلها… بعوالم أخرى، بشخصيات أخرى، وربما بأسئلة أعمق.

وهذه… هي النتيجة.

قراءة ممتعة.

01

"أقرب تعريف لي هو أنني كاتب تطارده الكوابيس في نومه، أغربها كابوس واحد متكرر يصعب تفسيره."

كان ريان عاريا، مسلوب القدرة على الحركة مثل دمية مهملة لا يُعرف من ألقى بها في هذا المكان المهجور، لكنه يعرف بدقة عوالم هذا الكابوس، والطريقة التي يتسلل بها إلى عقله.

يطغى على المكان صمت ثقيل، لا يقطعه شيء إلا صدى صوت جناحين يرفرفان.

جاء الطائر الأسود مرة أخرى من جديد... ذلك الكائن الغامض الذي لم يمل من زيارته منذ الحادثة الغريبة.

لهذا الطائر مهمة واحدة: أن يفترس قلبه ويغادر.

مع كل نهشة بين أضلعه يشعر بفقدان شيء في داخله، ومع ذلك يظل منتظرا أن ينتهي من افتراس قلبه، وحينها فقط تنتهي أحداث الكابوس.

يرفع الطائر رأسه في اللحظة التي يلتهم فيها القلب. ينظر إليه، ثم ينظر إلى الأعلى كأنه يطلب إذنا من آمرٍ فوقه، قبل أن يحلق نحو سماء غائمة.

كلما يبتعد الطائر يتلاشى جزء منه، يتحول إلى رمل أسود يتناثر فوق ريان، يسقط على وجهه، على صدره الذي أصبح أجوفا، وعلى الأرض من حوله حتى يغطي كامل جسده.

حين يصل الكابوس إلى هذه النقطة يعرف أنه قد انتهى، قبل أن يعدّ في داخله: واحد... اثنان... ثلاثة... ثم يتبعه شهيق طويل حدّ الاختناق، ويستيقظ بعدها.

هذه المرة لم يستطع فتح عينيه نصف المغمضتين، وأول ما نظر إليه السقف فوقه، لم يكن هو نفسه سقف منزله، بل كان سقفا متشققا غامق اللون، يعتلي مكانا غريبا عنه، لم يره من قبل.

حتى الهواء لم يكن كالذي يدخل صدره عادة في غرفته.

يعبق هواء المكان برائحة خانقة هي مزيج من الرطوبة، والصدأ، و الدخان.

لا صوت، لا حركة... فقط صمت مطلق يخالجه وصوت أنفاسه المرتجفة.

حاول فتح عينيه أكثر. لم يساعده جفناه على ذلك. كان رأسه ثقيلا، وأطرافه باردة. حاول تحريك أصابعه، لا استجابة. حاول تحريك رأسه، لا استجابة. شعر بأن جسده يخونه.

لم يكن نائما بالكامل، أو مستيقظا تماما، كان في حالة وسطى أشبه باحتجاز بين عالمين.

وهو يحاول أن يستيقظ، رآها! لم تكن رؤية واضحة، بقدر ما كانت ومضة تجلت من خلالها صورة اصطدمت بعينيه، ثم انسحبت بسرعة.

رأى امرأة! أو ما تبقى منها، جثة مقطعة، أشلاؤها مبعثرة في المكان.

أشد ما أفزعه وشم صغير أعلى ثديها الأيسر، ليس خوفا من شكله ولا من رمزه، بل من ذلك الإحساس المجهول الذي سيطر عليه فجأة.

خُيل له أنه يعرف هذا الوشم، كما لو أنه رآه من قبل في مكان لا يقوى على تذكره.

كان يرتجف، لا من بشاعة المشهد، بل من السؤال الذي بدأ يتمدد في رأسه: لماذا أشعر أن شيئا ما يربطني بهذا الوشم؟ حاول أن يركز في ملامح وجهها المشوه عسى أن يرى تقاسيم تُقنعه أنها شخص غريب لا يعرفه، لكن عينيه عادتا إلى الانطباق،

كما لو أن شيئا ما في داخله لا يريد أن يرى أكثر.

حاول فتح عينيه، وفي كل مرة كان الظلام يُحكم سيطرته، لكن بعد جهد لا يدري كم استغرق، فتحهما قليلا.

هذه المرة لم تكن أشلاء المرأة وحدها، بجوارها كان هناك رجال آخرون. حركاتهم دقيقة ومنتظمة كأنهم يقومون بعمل اعتادوا على فعله.

كانوا يجمعون الأشلاء ويضعونها في صناديق معدنية. كل شيء كان منظما حد الرعب.

حاول أن يصرخ، أن ينطق بأي حرف، أن يقول: توقفوا، أن يسألهم: من أنتم؟. أين أنا؟. لكن حنجرته لم تستجب.

حاول مرة أخرى، فخرج من صدره صوت ضعيف متقطع، ما هو بالصرخة، بل تنهيدة عاجزة.

أحس بخيانة جسمه من جديد.

اِنتبه إلى ريشة سوداء يتلاعب بها الهواء، تتحرك بخفة، ترتفع قليلا، تهبط، لتستقر على الأرض قليلا، يحركها الهواء من جديد، فتعلق ببقعة دم متجمدة قبل أن يدوسها أحدهم بحذاء عسكري أسود ثقيل.

في تلك اللحظة تحديدا شعر بشيء ينطفئ في داخله كأن جزءا من روحه كان متعلقا بتلك الريشة، ومات معها.

اِستيقظ ريان بعد شهيق ثقيل. هذه المرة كان قادرا على فتح عينيه، وعلى الشعور بأطرافه، بوزن جسده فوق الفراش.

أدرك أخيرا أنه في منزله، الستائر السوداء الثقيلة تغطي النوافذ كما في سائر الأوقات. الجدران هي نفسها التي تحتفظ ذاكرته بأدق تفاصيلها. لكن، مشهد جثة المرأة المقطعة يظل عالقا في خياله.

كان يشعر بتعب شديد، و بارتخاء شديد في العضلات، جسمه عارٍ إلا من طبقة عرق باردة تغطي جلده، حاول أن يتذكر: هل نمت عاريا؟.

شيء ما في أصابعه جذب نظره إلى يده. نظر إلى كفه أولا، ثم إلى ذراعه، فإلى ساقه.

لمح بقعا من الدم اليابس تلطخ جلده، متفرقة هنا وهناك، بعضها صغير كالنقطة، وبعضها ممتد كخطوط قصيرة.

للحظة شعر بشيء يتقلّب في معدته، مزيج بين الذعر و الغثيان.

أسئلة كثيرة تتشكل داخل رأسه المشوش: هل هذا دمي؟. دم شخص آخر؟، أم مجرد وهم؟ كان يسمع خفقان قلبه الذي بدأ يتسارع كلما أطال النظر إلى يديه.

مد أصابعه إلى ذراعه الأيسر، حاول مسح إحدى البقع، بلل إصبعه بقليل من اللعاب وحاول مرة أخرى، لكن بقع الدم لم تزل. النقط، والخطوط الدموية كانت متيبسة خشنة.

همس في داخله من الرعب: ربما لا أزال عالقا داخل كابوس ما.

ترنح في خطوه نحو الحمام منهك الجسد، وعقله يقاوم سيلا من التساؤلات.

أضاء المصباح بيد مرتجفة، ثم وقف أمام المرآة. كان هناك شيء مخيف في فكرة النظر إلى نفسه في تلك اللحظة، لكنه فعل.

رأى وجهه، لكنه لم يكن وجهه المعتاد: جلد شاحب، عينان غارقتان في سواد غير مألوف، شفتان جافتان.

شعر للحظة أن المرآة ليست كما كانت من قبل سطحا جامدا يعكس صورته، بل هي الآن فتحة، نافذة، كائن يبادله

النظر، شيء يتنفس معه. راوده إحساس غريب بأنه ليس وحده الواقف أمام المرآة.

مد يده يتلمس سطحها البارد ليتأكد أن ما يراه ليس وهما. وفي اللحظة التي لامست فيها أصابع يده سطح المرآة بدأت النقط وخطوط الدم على يديه تختفي.

كانت تتلاشى ببطء، نقطة بعد أخرى، خطا بعد آخر كما لو أن يدا غير مرئية تمسحها. لا أثر يبقى منها، لا لون، لا خدش، لا شيء، كأن جلده يعود إلى حالته الأولى نظيفا، خاليا من أي أثر.

تراجع خطوة إلى الوراء. أحس ببرودة تصَّعد عبر عموده الفقري، كأن أحدا نفث هواء داخل عظامه. أنفاسه بدأت تتقطع، قصيرة متلاحقة.

وهناك صوت خافت يأتي من خلفه، كان أقرب إلى الهمهمة في البداية، ثم بدأ يتشكل حتى أصبح شبيها ببكاء صبياني مكتوم، شهقات مقطوعة قبل أن تخرج كاملة.

اِلتفت بسرعة. لم يكن هناك أحد. الحمام فارغ، والباب نصف المفتوح يؤدي إلى ممر مظلم لا أثر لطفل فيه، ولا لبكاء، ولا لأي كائن آخر.

عند عتبة باب الحمام كانت هناك ريشة سوداء، صغيرة، مبللة، ملتصقة ببقعة ماء صغيرة لها نفس الحجم، نفس اللمعان، كالريشة التي رآها في ذلك المكان الغريب.

انحنى نحوها ببطء، اقتربت يده منها دون أن يلمسها، قلبه يكاد يتوقف عن النبض، عقله يبحث جاهدا عن أي تفسير منطقي: ربما علقت بثيابي أو حذائي في الشارع؟ ربما دخلت من النافذة؟ ربما... أنا لم أستيقظ بعد... أو ربما... ما أراه الآن مجرد كابوس جديد ينضاف إلى كوابيسي.

مدّ يده، وفي اللحظة التي كاد أن يلمس فيها الريشة أحس بشيء ما يتحرك في صدره، في المكان الذي يفترض أن يكون فيه قلبه. نبضة، ثم أخرى، ثم فراغ قصير.

02

"مع كل صباح يسعى الإنسان لأن يقتل ذكريات، ويختلق أخرى. أن يصلح شيئا ما، أو هكذا يعتقد دائما."

قبل عام..

تقلب ريان بكسل. لمس دراعة الأيسر، ثم وجهه كأنه يحاول الشعور بوجوده في هذا العالم ولو بقدر بسيط.

جسده المكوّم فوق الصوفا يبدو كجسد ليس فيه من الروح إلا ما يكفي لتحريك أصبعه على تطبيق إنستغرام، كان يشاهد مقاطع فيديو عشوائية فقط ليكسر رتابة المكان من حوله.

بدأ يتنقل من مقطع إلى آخر بعشوائية متعمدة كمن لا يبحث عن شيء محدد، بل يهرب من كل شيء. إستقر أخيرا عند مقطع دون أن ينتبه لطبيعة ما يعرضه.

صور البحر تمر أمامه لكن عقله لم يكن يرى أمواجه. عقله عالق في مكان آخر، مكان مزدحم بأفكار، بأصوات، بوجوه، بظلال

وشذرات من كوابيس لا منتهية، وأسئلة يعرف مسبقا أن لا جواب لها.

شعر و كأن تلك الأصوات، والأفكار، والصور توحدت من أجل هدف واحد: تعكير مزاجه، والضغط عليه، وتذكيره بأنه مجرد نكرة حالفه الحظ لبضعة أيام قبل أن يعود إلى حجمه الطبيعي، عاريا، هشا، بلا وزن.

عادت إلى ذهنه فجأة صورة صديقته أمل. رفيقة أيام مضطربة، فتاة حاولت أن تنقذه من نفسه، من غروره، من نزقه، من هشاشته، لكنها سقطت في شراكه ، فخرب حياتها.

أمل كانت تقول له دائما إنها تنازلت عن كرامتها وإنسانيتها بما يكفي، كانت تسعى لأن يقع في حبها، أن يمنحها قلبا لا يعرف أن يمنح نفسه لأحد، لكن النهاية كانت محسومة.

ريان لم يكن الرجل المناسب لما تحلم به، كان أشبه بكابوس يمشي على رجليه. و لم تكن هي المرأة المناسبة لعوالمه الغريبة المظلمة، تلك العوالم التي تحتاج إلى شخص أقرب إلى الأشباح منه إلى البشر.

كان آخر ما قالته له قبل أن تختفي من حياته: أنت كائن بشع.. بل أنت البشاعة نفسها... عالج نفسك من أمراضك المظلمة حتى لا تؤذي نفسك وتؤذي من تحب... ستنتهي حياتك ببشاعة إذا لم تتعالج من أمراضك.

الفيديو على إنستغرام كان يعرض مقطعا من وثائقي عن المحيطات: حيتان تائهة في المحيط تسمع أصواتا تأتي من أماكن مجهولة. أصوات تربك بوصلة حياتها، و تفقدها القدرة على الصمود، فتقرر أن تلقي بنفسها على الشاطئ كأنها تستسلم لمصير لا ترغب في فهمه.

صوت المعلق: "وُجدت عشرات الحيتان الميتة على شاطئ لونغفيور غربي آيسلندا..."

اِخترقت العبارة قلب ريان كطعنة. أحس كأن عبارة واحدة فقط قادرة على إعادة سحبه إلى قاع الحفرة العميقة التي يحاول أن يخرج منها.

عاد فجأة إلى ظلمة ورتابة المكان الذي يعيش فيه، مكان أججت فيه روائح السجائر إحساس الإحباط.

لم يعد قادرا على الكتابة: هذه الحقيقة التي يخاف الاعتراف بها.

دأب على اعتبار الكتابة عملية عبور إلى بعد آخر، بُعْدٍ يسمح له بالهروب، بالاختباء، بالتوغل في عوالم موازية تجعل المسافة بينه وبين كوابيسه منعدمة.

اليومَ لم تعد هناك بوابة، لم تعد هناك عوالم، لم تعد هناك أصوات تهمس له، لا ظلال تلهمه، ولا شخصيات تطرق جمجمة رأسه مطالبة بالخروج.

في هذا الفراغ بدأت تفاصيل حياته الموازية تعود إلى السطح: هروبه المتكرر نحو الخيال، قدرته على خلق عوالم يستطيع فيها احتجاز شخصيات بأرواح ممزقة، السيطرة عليها، ودفعها إلى ارتكاب ما تخاف منه.

حتى كوابيسه التي كانت تزوره كل يوم توقفت عن زيارته كأنها ملت منه.

شعر بألم يعتصر قلبه حين تذكر لحظات احتضار أبيه وهو يرحل، جثة عارية يميل لونها تدريجيا لزرقة خفيفة باردة، هذه الصور كانت كافية لفتح باب لمشاعر داوم دفنها كل يوم.

تذكر يوم عثور الشرطة على جثة أبيه في الغابة، فاستحضر ما كان يتداوله الجيران، والأطفال في المدرسة عن هذا الحادث، كانت تلك المشاهد والقصص أكبر من قدرة طفل على الفهم.

لم يبك، لم يستطع ذلك وقتها، كان أقصى ما يمكنه الشعور به: وخز في قلبه، فراشات تلهو داخل معدته، كرة عالقة في حلقه تمنعه من النطق أو الصراخ أو البكاء.

كتب بعد الحادث لأول مرة: لماذا غادرت بهذه الطريقة؟ هل ما يقوله الناس حول ظروف موتك صحيح؟ هل حقا كانت جثتك عارية زرقاء اللون؟ هل فعلا نهشتها الحيوانات؟...

كتب هذا وهو في حالة بكاء خانق، غضب من الله، من الفراغ الذي تركه أبوه في حياته.

حين توقفت دموعه لم يعد القلم يفارقه، و في تلك اللحظة بدأت فكرة واحدة تتشكل في ذهنه: أن يصبح كاتبا. لا حبا في الأدب، بل لأن الكتابة ربما تستطيع إعادة خلق ذكريات أخرى، إصلاح شيء ما، أو هكذا كان يعتقد.

الآن يكتب لأنه إن لم يفعل سينتهي، سيصير ظلا، سيصير أحد تلك الحيتان التي تسمع أصواتا مجهولة، فتلقي بنفسها على الشاطئ.

يكتب حتى ينقذ نفسه من عتمة لا يطفئها أي نور.

03

"الحياة متاهة فيها كل شيء مكتوب سلفا... ونحن نظن أننا من نكتبه"

كان ريان منذ البداية يدّعي أنه يعرف ما يريد، أو على الأقل هذا ما كان يكرره كلما وجد نفسه عالقا في حياة لم يختر تفاصيلها بالكامل.

"أنا شخص يعرف دائما ما يريد"، هكذا كان يقدّم نفسه للآخرين.

دخل عالم الصحافة لا ليُحارب الظلم، ولا ليقف في صف المظلومين، ولا ليُساهم في كشف الحقيقة، بل أصبح صحفيا لأنه كان يرى في الصحافة شيئا واحدا فقط: مختبرا للكتابة.

لم يكن يهمه كثيرا أن يكون صحفيا جيدا، كان يهمه فقط أن يكون كاتبا جيدا، و كل ما عدا ذلك مجرد وظيفة جانبية.

اِنتحار أبيه بطريقة غريبة فتح حفرة في حياته، حفرة لا قاع لها تبتلع المعاني: لا يسكنها بشر، ولا حب، ولا نجاح…

****

لم يكن ريان يُخفي حقيقة أنه كان دائما مهووسا بشخصية الكاتب أكثر من الكتابة نفسها. ذلك الشخص الذي يتجول في الواقع وهو يحمل في رأسه عوالم كاملة بشخوصها و جرائمهم، خيباتهم، أحلامهم المبتورة... شخص يعيش على هامش كل شيء، متعاليا على كل شيء، كأنه يراقب الحياة من شرفة عالية.

هكذا كان يسوق نفسه للجمهور. ريان النوري، البوهيمي الأنيق كما كان جمهوره الصغير يحب أن يصفه. لم يعرف من أين جاءوا بهذا الوصف، ولم يعرف أي شخص قرر أن يصفه بالبوهيمي، وأي شخص قرر أن ينعت هذه البوهيمية بنعت الأناقة.

وهو لم يعترض. على العكس فقد أحب هذا الوصف الذي يخدمه، يمنحه قناعا مناسبا ليلعب الدور الذي يحلم به، ويريد أن يعيشه.

لم يكن يهمه إن كان القناع حقيقيا، أم لا. يكفيه فقط أن تنتشر صورته ككاتب شاب يقتحم عالم الرواية بثقة.

يكفي أن اسمه بدأ يتردد على ألسنة قراء لا يعرفهم، فيتحدثون عن أسلوبه، وعن عوالمه الغريبة.

أصبح لديه جمهور وفيّ من أولئك الذين قرأوا روايته الأولى (اللوحة البيضاء)، وأحبوها. هي رواية كأنها حلم جميل يمتزج فيه الغموض بالرومانسية، حكاية حب مكسورة تنمو وسط متاهة من الأسئلة الوجودية.

هؤلاء القراء كانوا يراسلونه، يُخبرونه أنهم ينتظرون روايته الثانية، أن يُكمل في نفس العوالم، أن يعود لهم بحكاية حب أخرى تليق نهايتها بقلوبهم، لكنه خيب ظنهم.

لم يكن مهتما بالبقاء في المساحة التي أحبوه أن يبقى فيها، كان مسحورا بعوالم أخرى أكثر ظلمة، أقل رومانسية.

رواية (القربان) كانت انقلابا على الجمهور. كانت بعيدة كل البعد عن حكايات الحب البريء، والنهايات الجميلة... لا فرصة فيها للنجاة السهلة، ولا لأبطال ينتصرون في النهاية فقط لأنهم طيّبون.

أكثر ما يستفزه هو الحشو في الكتابة، الصفحات المليئة بجمل طويلة لا تقول شيئا، كلام يدور حول نفسه ثم يعود إلى نقطة البداية كما لو أن الكاتب يتعمد الهروب من اللحظة التي عليه أن يقول فيها الحقيقة.

يكره التعبيرات الكليشيه، الجُمل المستهلكة التي يستعملها الصحفيون والكتاب. كان دائما يشعر بالخجل من المقالات التي يكتبها. هي قصص واقعية، نعم، لكنها متوقعة، ولا شيء مغرٍ فيها.

كان يتفهم جيدا حالة الضياع التي يعيشها الصحفي، يعرف جيدا ماذا يعني أن يكون الشخص مطالبا بكم هائل من الكلمات، سواء كان مستعدا نفسيا للكتابة أو لا، شغوفا أو منهكا. وفي كثير من الأحيان، عليه أن يلتزم بأعراف غبية، أن يتظاهر بالموضوعية، أن يسمي الأشياء بأسماء أقل حدة مما تستحق.

الغرق في دوامة البحث عن الأخبار يحول الشخص إلى كائن بدون روح. يتعامل مع الكلمات كما يتعامل عامل في مصنع مع قطع مكررة، يجتر كلام المصادر كما هو، يكتب تبعا لقوالب جاهزة اعتاد عليها، ثم يسلم مقالات تبدو في النهاية شاحبة مثل وجهه، ومجهدة مثل حياته.

كان يرى زملاءه الأكبر سنا وهم يتحولون إلى آلات تكتب بلا شغف، بلا غاية، بلا سؤال حقيقي. كان يخاف أن يصبح مثلهم.

وسط هذه الحياة الرتيبة التقى بإيرينا، فتاة قضت معظم حياتها في برشلونة، ثم، لسبب لم يسألها يوما عنه، قررت أن تستقر في المغرب.

درست فنون الأداء، لعبت أدوارا على خشبة المسرح، وفي السينما الإسبانية والأمريكية، ثم انسحبت فجأة من هذا العالم، تركت التمثيل في عز ما كان يبدو أنه بداية شهرتها، وأغلقت بابا كان يمكن أن يقودها إلى خط آخر في الحياة.

إستهواها العيش في الخيال، كما كانت تقول، أصبحت كاتبة سيناريو تكتب عوالم يمثلها الآخرون، بدل أن تقف أمام الأضواء، هذا كل ما كان يعرفه عنها في البداية. ولفترة طويلة لم يكن يهمه أن يعرف أكثر.

اِلتقى بها مرات عديدة، ودون أن يتبادلا كلمة واحدة كان كلاهما يعرف الآخر من بعيد عبر النظرات العابرة، و الابتسامات السريعة.

وجدها غريبة الأطوار، قليلا، كأنها شخصية هربت من حبكة فيلم، فيها قدر كبير من الغموض والغرابة، لكن هذا لم يكن هو ما أغراه في البداية ربما لأنه كان غارقا بما يكفي في غموضه الخاص.

كان حينها عالقا في خياله يبحث عن نهاية مناسبة لروايته الثالثة: (هل لديك اسم آخر؟)، رواية كانت تنهش من خياله دون أن تكتمل، شخصياتها تتصارع، نهايتها تتبدل كل يوم وكأنها ترفض أن تكتب.

كان يحاول أن يتحرر من الضغط الذي مارسه عليه جمهوره، وعدد من النقاد، فبعد إصداره لرواية (القربان) اتهمه البعض بالترويج لأفكار غريبة عن المجتمع، وادّعوا أنه يُحرّض على التطبيع مع فكرة الانتحار.

كان يدمن قراءة كل ما يُكتب عنه في مواقع التواصل الاجتماعي. جانب من شخصيته كان يستمتع بالفضيحة، والجزء الآخر كان

يتألم، قليلا، لا لأنهم أساؤوا فهم الرواية، بل لأنهم أثبتوا له أنه يعيش في عالم مرهق بالواقعية، سطحي، ويكره الخيال.

الجريمة التي ارتكبها في حق جمهوره، كما فهم هو مما كُتب وقيل عنه، هي أن رواية (القربان) تجعل القارئ يصل إلى نتيجة مزعجة: أن الخير يمكن أن ينهزم أمام الشر.

كان يرى ما جاء في رواية (القربان) قريب جدا من حقيقة البشر، لأن البشر يمكن أن يرتكبوا في حق أنفسهم، أو في حق الآخر، أشياء تفوق بشاعتها الخيال. لكن الناس يريدون الأدب كمخدر يطمئنهم أن كل شيء سينتهي بخير في النهاية. وهو لم يكن مستعدا لهذه الخدمة.

كان ريفيوج، المكان الذي التقيا فيه كثيرا هو وإيرينا، مقهى في وسط مدينة طنجة، يبدو في النهار عاديا للغاية لكنه

في المساء يتحول إلى مساحة عائمة، مكان بين عالمين: عالم من يدخل إليه ليهرب، وعالم من يجلس ليتظاهر أن كل شيء بخير.

كان يحب هذا المقهى لأسباب غير مفهومة. كل ما يعرفه أنه في أول الأمر كان يهرب إلى هذا المكان عندما تحاصره أرواح شخصيات رواياته.

أحيانا كان يشعر كأن تلك الشخصيات تسبقه إلى المقهى، تجلس هناك، تشعل سجائر، وتنتظره ليلتحق بها... ربما كان يهرب إليه لأنه لم يجد مكانا آخر يهرب إليه.

في ريفيوج، كانت نظراتهما تتقاطع دائما. هي تجلس قرب الشرفة، اللابتوب أمامها، وكأس قهوة أو نبيذ حسب الوقت. وهو في الركن المقابل، يكتب، أو يتظاهر بالكتابة بينما يراقب الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون.

في البداية، كان الأمر مجرد معرفة من بعيد، لكن شيئا خفيا كان يتكون مع الوقت، نوع من التعارف الصامت كأن المقهى نفسه كان يدفعهما إلى أن يلتقيا، أن يتحدثا، أن يكسرا هذا الجدار الشفاف بينهما.

في أحد الأماسي جاءت هي إلى طاولته دون مقدمات. وقفت للحظة، نظرت إلى الدفتر واللابتول المفتوح أمامه، ثم سألت: ماذا تكتب؟

رفع رأسه فجأة.

"نعم!؟"، قال بلا وعي، كما لو أن السؤال مباغت. ثم أضاف بعد صمت قصير: "أحاول إنهاء رواية أكتبها".

رفعت حاجبيها باهتمام طفولي: "أنت روائي إذن...". ثم تابعت بابتسامة خفيفة: "أنا أيضا أحب الكتابة".

قال وهو يحاول أن لا يبدو مرتبكا:

- "ماذا تكتبين؟"

- "أفلاما… أقصد سيناريوهات أفلام"

- "عظيم"، قال.

اِبتسمت، نظرت إلى الطاولة المجاورة، ثم قالت: "سأعود إلى طاولتي… فقط أردت أن أعرف إن كنت تكتب، أم تمارس طقوسا غريبة".

ضحكت، ثم تركته، لكنها لم تفارق خياله بعد ذلك.

هذا الحوار البسيط كان بداية قصة بين روحين القاسم المشترك بينهما: العيش وسط الخيال. منذ تلك اللحظة، لم يعد ريفيوج مجرد مقهى، صار مسرحا صغيرا تتكرر على

خشبته نفس الشخصيات، بينما تتغير النصوص.

في الأيام التالية، صار الحديث أطول. مرة تسأله عن الكتب التي يقرأها، مرة عن رواية (القربان) والجدل الذي أثارته، عن الجو العام في الصحافة والأدب، عن الطفولة، عن سحر مدينة طنجة.

وهو يسألها عن مشاريع أفلامها، عن المسرح، عن الحلقة التي جعلتها تترك التمثيل. لم تكن تجيب عن كل الأسئلة. كانت تنتقي ما تشاء، وتترك ما تشاء بطريقة لم يكن يراها اعتباطية أبدا. كان لديها إيقاعها الخاص.

مع الوقت، نشأ بينهما ما يشبه إعجابا، أو انجذابا غير مستقر. لم يكن حبا، لم يكن صداقة، لم يكن شهوة صرفة، كان شيئا يتشكل ويذوب حسب مزاج اليوم.

تحول هذا الإعجاب إلى شيء أوضح في يوم سبت خريفي ممطر.

في ذلك اليوم، وصل ريان إلى المقهى متأخرا، وجدها هناك قبله. كانت جالسة على طاولة قرب الزاوية، سارحة في خيالها و اللابتوب أمامها. رفعت رأسها حين وقف قبالتها. اِبتسمت ابتسامة دافئة على غير عادتها.

"أحب الجلوس أمام الشرفة.. جلست هنا لأن المكان كان ممتلئا.. الجميع يختبئ من المطر"، قالت وهي تشير إلى كرسي مقابل لها: "تعال، اجلس. لقد أكملت... أهلا بنهاية الأسبوع".

جلس، أحس لوهلة أنهما لا يجلسان في المقهى، بل في مكان آخر، في غرفة بين الأزمنة، في فراغ مشترك بين حكايتين لم تكتبا بعد.

بدأ الحديث تافها عن المطر، عن رياح طنجة، عن انقطاع الكهرباء الليلة الماضية...

سألته بدون مقدمات: "لماذا تبدو دائما كأنك تخفي شيئا ما؟".

"كلنا نخفي شيئا ما"، قال وهو يُحاول أن يُقلل من أهمية السؤال.

"لكن البعض يجيد الإخفاء أكثر من الآخرين". قالت و هي تحدق في عينيه.

- "لقد قرأت القربان.. روايتك...".

سكت منتظرا أن تتابع.

- "مشكلة القراء ليست مع الأحداث غير القابلة للتفسير". تابعت قائلة.

- "مع من مشكلتهم إذن، معي؟". قال بعد أن رسم نصف ابتسامة على وجهه.

- "مشكلتهم مع شيء فيك بدأ قبل أن تكتب حرفا واحدا من هذه الرواية"

كان مستعدا أن يدافع عن نفسه ككاتب، أن يشرح و يُحلّل، لكنها لم تترك له فرصة.

"تكتب كمن يريد أن يعيد خلق ذكريات بديلة لذكرياته"، قالت، ثم أردفت بعد صمت قصير:

"كل صوت في الرواية يشبه صوتا فقد صاحبه شيئا لا يعرف كيف يسترجعه".

حاول تغيير الموضوع، فبادرها بالسؤال: "وأنتِ؟ لماذا تركتِ التمثيل؟".

اِبتسمت، نظرت إلى النافذة للحظات، ثم قالت: "لأنني اكتشفت أنني لا أطيق أن أكون جسدا لخيال الآخرين. أريد أن أكون من يخلق الخيال… أن أعكس اللعبة". ثم أضافت وابتسامة غريبة ترتسم على شفتيها: "وأريد أن أرى ما الذي يمكن أن يحدث لو دخلت أنت أيضا إلى هذه اللعبة".

"أي لعبة؟".

رفعت فنجانها، ارتشفت آخر رشفة من قهوتها، وقالت: "اللعبة التي يكون فيها كل شيء مكتوبا سلفا… ونحن نظن أننا نكتبه".

ذلك اليوم الممطر كان بداية عقد غامض بينهما. كان هناك خط ما غير مرئي قد رسم، خط يجمع بين رغبته في خلق وكتابة عوالم جديدة، وبين التخلص من عوالم رواية (القربان)، و إيرينا التي ظهرت في منتصف الطريق كأنها شخصية خرجت من رواية لم يكتبها بعد.

حين تلاقت نظراتهما، اقتربت منه ببطء قبل أن تذوب المسافة بينهما في قبلة حب حارة، كأنها ختم غير معلن لذلك العقد الغامض.

04

"أكثر الناس لطفا قد يحملون في دواخلهم أكثر الرغبات قتامة".

إذا كانت رواية (اللوحة البيضاء) قد جعلت اسم ريان النوري يلمع قليلا في عالم الأدب لمعانا يشبه انعكاس ضوء على بركة ماء راكدة، فإن رواية (القربان) جاءت كحجر ضخم قذف في تلك البركة، فشطر سطحها الهادئ، وأغرق ما تبقى من صورته.

كان الجميع ينتظر أن يكمل ريان صعوده، أن يصبح صوت جيل جديد من الكتاب.

لكن (القربان) لم تكن مجرد رواية، كانت تمرد كاتب على جمهوره، على الصورة التي يحاول أن يرسمها له الجميع، القبر الذي بدأ يحفره فعلا لنفسه.

فشلت الرواية تجاريا في المغرب بعد أن تم منعها، وصار اسم ريان النوري مرتبطا بسمعة غريبة غامضة و غير مريحة، كاتب يأتي بأفكار سوداء ليكتبها برائحة و طعم الموت.

بداية عرفت الرواية نوعا من الشهرة بعد أن تحدثت عنها بعض الصحف والقنوات الأجنبية من زاوية التضييق على حرية التعبير والإبداع في المغرب، ما جعل بعض الجهات تتسابق لترجمتها إلى لغات أخرى.

ريان نفسه لم يكن يفهم تماما كيف ولدت تلك الرواية؟، و لا كيف أدخلته في نفق طويل من التأويلات، ومعارك ليست معاركه أساسا. كان يعرف ملامح الرواية، و أن عنوانها لم يكن صدفة، لكن لا يستطيع أن يتذكر اللحظة الأولى التي نبتت فيها فكرتها.

كان نور (بطل رواية القربان) يتنفس داخل رأسه، ثم بدأ يحكي له عن نفسه، دون أن يطلب منه الإذن.

نور لم يكن يبدو كشخصية متخيلة، كان صوت رجل منهار، يهمس داخل رأسه: "أنا لم أعد أحتمل هذه الحياة".

كان صوتا صادقا بشكل مزعج، صوتا لرجل عرف أنه قدم للحياة نفسه، جسده، وقته، روحه، طفولته، شبابه، أحلامه، لكن الحياة لم تتفضل عليه بأي شيء، بل قابلت تضحياته فقط بأن وهبته كرة من الكآبة تكبر معه.

لم يشعر ريان قط أنه من كتب رواية (القربان)، فبالنسبة إليه كانت كأنها كتبت نفسها عبره. هو لم يعان من إرهاق الكتابة إطلاقا، لم يدخل ذلك النفق المظلم الذي يتحدث عنه الكتاب.

يحس أثناء الكتابة كأن شخصا آخر يجلس داخل رأسه و يكتب معه، شخص يعرفه جيدا، أو يعرفه أكثر مما يعرف نفسه، ذلك الشخص هو نور.

بطل الرواية يرى الشر مادة خاما، طاقة أولى، وهو ما يُحرك البشر. كان يرى أن الخير ليس إلا فضلة، فُتاتا يتصارع عليه الناس لأنهم يخافون مواجهة حقيقتهم.

كان يقول لريان: "لا أحد يحركه الخير، لكن الجميع يخجل أن يقول هذا بصوت عال".

كان يرى حياة الإنسان طقسا لقربان يقام بلا مذبح: لم يعد هناك كهف، ولا نار، ولا كاهن يحمل سكينا لامعة، لكن القرابين موجودة و تقدم كل يوم بشكل أجمل، وأرقى، وأكثر أناقة.

القربان الآن يرتدي بدلة، يعمل، يعرق، يتنافس، يوقع العقود، يحلم بمنزل وسيارة وقصة حب مثل تلك التي يراها في الأفلام، حياة سعيدة لا معاناة ولا ألم فيها، يكتم غضبه، يخفي شره، يحاول أن يبدو طيبا أمام الآخرين، يخاف أن يعيش، يخاف أن يموت، يخاف أكثر من أن يتخلى عن هذا كله.

القربان الآن هو الإنسان الذي يقدم نفسه لقوى أكبر منه من دون أن يستوعب ذلك، تمص دمه مقابل أوهام ووعود بالسعادة. لم

يكن نور يريد أن يكون قربانا، ولم يكن شجاعا بما يكفي ليرفض أن يكون كذلك.

أول منعرج في الرواية كان عندما قال نور لنفسه في إحدى الليالي البيضاء: كم مرة استيقظت وأنا أتنفس بصعوبة، أتصبب عرقا، فقط لأنني أحسست أن حياتي كلها كذبة؟

كان يعرف هذه الحقيقة منذ زمن، لكنه لم يجرؤ على قولها: "أنا لست قربانا لأحد… أنا قربان لفكرة مريضة نشأت معي منذ الطفولة: أن أكون إنسانا طيبا".

الجميع يحاول ربطه بهذه القصة المزيفة: نور رجل طيب وخير، نور إنسان ذو قلب كبير.

ثم جاء اليوم الذي استيقظ فيه وهو يشعر أن شيئا ما بدأ يموت في داخله، قال لنفسه: "أنا لست رجلا طيبا، بل أنا شرير متخف لا يقوى على ارتكاب الشر… و كل تلك

الطيبة هي فقط محاولة للهروب من هذه الحقيقة".

حاول تقبل هذه الحقيقة لكن الأمر كان أعقد مما توقع.

نور لم يكن قادرا على نزع قناع الإنسان الطيب، وإظهار وجهه الشرير للعالم.

كان يعترف لنفسه بهذا، كانت أفكاره الشريرة تبقى داخل رأسه، ولا تقوى على الخروج منه.

فكر في بديل آخر ليكشف جانبه الشرير: أن يقترف الشر مع الاحتفاظ بشيء من الخير لكنه لم يستطع فعل ذلك.

فكر أن يضع حدا لهذا الصراع: أن يريح نفسه من الضغط الذي يفرضه الاختيار بين الخير والشر.

لم يستطع إطلاق رصاصة على رأسه، لم يستطع الوقوف على جسر والإلقاء بنفسه، لم يستطع شرب مادة سامة تنهي حياته.

كان يخاف من رؤية الدم، من الألم، من اللحظة التي تسبق الموت.

تمنى أن يغادر مثل دخان خفيف في صباح بارد: لا صراخ، لا ضجة، لا جثة.

فعل الشيء الوحيد الذي يعرفه جيدا: هرب إلى العالم الافتراضي، إلى العمق المظلم منه حيث كل شيء ممكن، وكل شيء له ثمن. هناك وجد من يُساعده على الاختفاء من الوجود: مجموعة من الرواد و المنتسبين لمنتدى مُغلق في طبقة عميقة من طبقات الدارك ويب (الإنترنت المظلم) تسمي نفسها: "الذين يختفون".

كانوا يعرضون خدمة غريبة: اختفاء بلا ألم، بلا دماء، بلا جثة، بلا شاهد، بلا أثر…

يتعهدون للزبون أن يكون موته واختفاؤه نظيفا.

نور كان الزبون المثالي بالنسبة لهم، رجل محطم، طيب، ضعيف، مستسلم، يبحث عن مخرج واحد: أن لا يستيقظ مرة أخرى، وألا يعرف أحد أين اختفى.

كان مستعدا لدفع أي ثمن، ومستعدا أكثر أن يتجاهل كل علامات الخطر التي كانت تومض أمامه. دخل غرفة الدردشة، وهناك بدأت القصة التي ستُغير حياته أو تُنهيها.

05

"أختـبئ من شـيء مـا... أو ربـمـا أختـبئ من نـفـسي"

داخل شقة ريان..

كانت تمطر بخفة. قطرات صغيرة ترتطم بالنافذة، فتصدر صوتا خافتا، و يعلق بعضها بالزجاج. غرفة الجلوس كانت نصف معتمة، الضوء يتسلل بخجل من مصباح في الشارع، يترك ظلالا مرتعشة على وجنتي إيرينا.

كانت جالسة على حافة الصوفا، شعرها مبلل قليلا، عيناها تلمعان بنظرات غامضة، كأنها تعرف سرا عميقا عنه لا يعرفه حتى هو عن نفسه.

اِقترب ريان منها. لم ينطق، ولم تنطق. كان الصمت بينهما يمتلئ بشيء يتكون ببطء: لغة خفية لا تحتاج إلى كلمات، تُكتب بأنفاس متقطعة ونبضات قلب تتسارع كلما تقلصت المسافة بين جسديهما.

أغمضت عينيها واستسلمت لثقل تلك اللحظة، شفتاها انفرجتا قليلا، ليس انتظارا لكلام، بل كأنهما تتهيآن للاعتراف. لكنه لم يأتِ عن هيئة صوت، جاء حين أسند رأسه إلى عنقها ببطء، بحذر يكاد يكون خشية كسرِ شيء هش.

اِستنشق عطرها الذي كان خليطا غريبا من عطر خفيف ناعم، ورائحة دخان عالقة تحمل داخلها تناقضا حيا بين الدفء والاحتراق. شعر للحظة أنه يغوص لا في جسدها فقط، بل في شيء أعمق: في دفء بشرتها، في حرارة أنفاسها التي التصقت بوجهه.

لم يكن هناك كلام، فقط صمت صاخب بما يكفي لهدم جدران كاملة من الغموض بينهما.

أمسك بعنقها بحضور خفي، بسلطة لا ترى. اِرتبكت أول الأمر. اِنكمش صوتها إلى همسة ضائعة غير مكتملة، كأنها لم تجد طريقها إلى الخارج. حاولت أن تتراجع، أن تستعيد مسافة آمنة، لكن الصوفا خلفها تمنعها.

كان وكأنه يبتلع حركتها، يقيدها بلطف خادع، ويدفعها للبقاء كأنها دخلت لعبة لا تعرف قوانينها بعد، لكنها تشعر أنها أصبحت جزءا منها.

شعرت برقبتها تضيق في إحساس يتسلل إليها ببطء، كأنها تنزلق داخل نفق بلا بداية واضحة ولا نهاية مرئية، نفق لا يضيئه إلا انعكاس خافت في عينيه، بقعة ضوء وحيدة تتسع وتضيق مع كل نفس.

الهواء حول حلقها تغير، صار أثقل و أكثر كثافة، كأنه يحمل وزن اللحظة كلها. أنفاسها تدخل، لكنها تتردد في الخروج، كأنها تخشى أن تنهي شيئا لم يكتمل بعد.

ولوهلة قصيرة لكنها عميقة، كانت متأكدة أن هناك قبضة ما تحيط بها: قبضة لا ترى، لا تلمس، لكنها تعرفها، تعرف تماما أين تضع ثقلها، وأين تضغط، وأين تتركها معلقة بين الخوف والرغبة.

ريان:
- من أنت؟.

إيرينا وهي تحاول استرجاع أنفاسها:
- واحدة من شخصيات رواياتك!

ريان:
- محتالة...

إيرينا:
- خرجت من بين الأسطر والكلمات لاختطاف قلبك!

نقرت بأصبعها على صدره المتصبب عرقا قبل أن تنهض من على الصوفا، وطفقت تتجول بخطوات خفيفة كأنها تخشى أن توقظ الأرواح التي تسكن المكان. شعرها الأسود الكثيف يتدلى على كتفيها، يتماوج مع كل حركة.

كل ما عرفه عن الجمال كان مجرد صورة باهتة ومزيفة. هذا الجسد، في وقفته، في سكونه، في انعكاس الظلال عليه، كان يعيد

تعريف معنى الجمال، يذيب الحدود بين الجسد والروح، بين الرغبة و العشق.

توقفت عند النافذة نصف المفتوحة، مررت أصابعها بخفة على الزجاج البارد وعيناها تتأملان الحياة النائمة بالخارج.

إيرينا:
- في كل مرة أزورك أشعر كأنني أدخل شقتك لأول مرة.

ريان:
- وماذا أيضا؟. اعترفي يا غريبة الأطوار.

إيرينا:
- أنت!

ريان:
- هل أتغير في كل مرة تلتقين بي؟. اِعترفي...

الشقة صغيرة، لكن فيها فوضى تشي بأناقة غريبة. كتب مبعثرة على الأرض، نصوص مسطرة بخط يده على أوراق مختلفة الأحجام ملقاة بلا نظام جانب لوحات نصف مكتملة تظهر عالما غريبا: غابات كثيفة تتخللها ظلال طويلة بعيون متوهجة، كائنات تشبه البشر لكن بأجسام غريبة...

كانت تمرر أصابعها على حواف الكتب على الرف، تتوقف عند عنوان هنا وآخر هناك.

إيرينا:
- زحل في العبور... زحل... زحل... امممم! ما هذه العناوين؟ أرى أنك مهتم بالفلك أيضا.

ريان:
- نعم... قليلا.

إيرينا:
- عناوين كتب غريبة حقاً!

رفعت إيرينا كأس نبيذ إلى شفتيها، تذوقته، أغمضت عينيها للحظة كأنها تستعيد طعم جسده، دفء أنفاسه على عنقها.

ريان لبث مستلقيا على الصوفا يتأمل السقف، لكنه يشعر بها، بكل خطوة، بكل لمسة على كتبه ولوحاته. لم تكن تتجول كضيفة، بل كمن وجدت أخيرا مكانا يشبهها، مكانا يمكن أن تذوب فيه.

سقط نظرها على أوراق مدسوسة داخل كتاب، أغراها شكلها والطريقة التي أخفاها بها ريان، دفعها فضولها إلى إخراج الأوراق، وما إن وقعت عيناها عليها حتى أحست به ينهض من مكانه ويقترب منها.

كان مكتوبا على أول ورقة: "لم أعد أُفرّق بين الخيال وما يقع أمام عيني في الواقع. كل حادث، كل تزامن، كل رؤية، تؤكد لي أنني أعيش في عالمين. ربما أصبت بالجنون."

اِنتزع الأوراق من يدها بعنف. لم يعد وجهه بشوشا كما تعرفه بتفاصيله وملامحه الوسيمة، بل غدا وجها غاضبا يوحي بأن صاحبه على استعداد لإيذاء الآخر.

صرخ في وجهها: لا تلمسي تلك الأوراق. إعطنيها.

صدمتها ردة فعله العدوانية وهي تحاول أن تستوعب ما يحدث أمام عينها. طلب منها بغضب أن تغادر منزله فورا.

06

"الجميع يهرب مني، من جانبي المظلم. بينما أنا أهرب إلى الخيال لأجد تفسيرا لما يحدث لي."

لم يكن ريان يبحث عن أحد يشاركه وحدته، أو خياله، أو كوابيسه، أو أن يعيش قصة حب أخرى تنتهي قبل أن تبدأ.

كان يرى في نفسه كائنا سيعيش، و سيموت وهو غارق في بحر من الكوابيس.

لم يكن يظن حتى أن ثمة شخص مثل إيرينا يمكن أن يوجد خارج أوراقه المبعثرة، خارج رأسه المتخم بكوابيس وشذرات من عوالم وقصص غامضة.

كان معها يزداد يقينا أن ما يقع بينه وبينها قصة لن تتكرر مرة أخرى في حياته.

جعلته إيرينا يراقب الحياة بتهكم مبالغ فيه. كم أحب علاقتها بفكرة الحياة والموت، وتلك السخرية العميقة التي تنقذها من الغرق في جدّية العالم.

جاءت إيرينا لتوقظ ذلك الجزء الذي كان قد دفنه كي لا يؤلمه أكثر مثل عاصفة تركت خلفها سماء صافية.

قبل أن يلتقي بها كان يتفرج على صوره تتلاشى أمام عينيه، وأمام أعين من أُعجبوا به. وكانت سلسلة من الأسئلة تسيطر على تفكيره وترهقه. في لمح البصر وجد نفسه مجددا غير قادر على السيطرة على حياته، و في حالة من التلاشي التام.

كان يرى نفسه مثل ورقة شجرة تلعب بها رياح الخريف، يحاول إخراج مشاعره إلى الوجود كمن يقتطع جزءا من روحه، ويمنحه إلى مخلوقات مُشوهة تنهشه حتى تُطفئ نار جوع متراكم بداخلها، وكلما كان يفكر في لا جدوى التخيل، وإخراج كل الحب والخوف الذي بداخله، كان يضع أقلامه وأوراقه جانبا، ويعود إلى الاختباء من جديد.

تساءل وقتها: لماذا ندخل في هذا النوع من المعارك: معارك إبهار الآخر، تغيير

الآخر، إهانة الآخر، الرغبة في الانتقام منه، الرغبة في السيطرة عليه، أن نكون دائما على حق؟. كان صوت من داخله يجيبه دائما: هذه المعارك مُنهكة ومؤلمة، ونهاياتها تكون الإحباط والرغبة في المحاولة مرة أخرى، الانهزام من جديد ثم الهروب، أو الانعدام.

صوت آخر في عقله كان يذكره: إن ما يُرهق الإنسان هو ضعفه أمام التعلق. الخلاص هو القدرة على محو التعلق من الحياة، التعلق بالأشياء، بالأشخاص، بالأفكار، و بالصور بحثا عن ذلك الملاذ الآمن والبعيد عن الألم، التعلق بأي شيء حتى نستطيع الوثوق بعالم أحمق، ضبابي، سطحي وعميق المعاني في الآن نفسه.

اختطفته إيرينا إلى مكان تلاشت فيه هذه التساؤلات، قليلا، لكن شعورا بعدم اليقين كان يتسرب إليه كلما فكر في أنه قد يأتي يوم ما قد تنعدم فيه إيرينا من عالمه. كيف له أن يبدأ حياة جديدة وخالية من الخوف و الألم؟

كيف له أن يتخيل وجود عوالم أخرى غير هذه الحياة؟ و هو الذي لا يزال متعلقا كطفل بعوالم هذه الحياة، و لا يعرف أي شيء عن حياة أخرى قد يشعر فيها بالراحة من كل شيء، من الركض نحو تحقيق شيء ما، من الألم، من الانتظار.

لكن ذلك اليوم غيّر كل شيء داخل إيرينا، فيه فهمت بشكل متأخر أنها لم تدخل علاقة حب غريبة الأطوار فقط، كتلك التي كانت دائما تحلم بعيشها، بل دخلت متاهة مظلمة يصعب الهروب منها.

لم تكن تخاف من أفكاره السوداء، أو من تقلبات مزاجه الحادة، كانت تبرر كل ذلك لنفسها، وتقول إنه شخص متعب ومرهق بسبب ماضيه و كوابيسه التي تطارده لكن ما جعلها تفكر، لأول مرة، في الابتعاد عنه هو اللحظة التي شعرت فيها أن حياتها قد تنتهي بسببه.

في مساء صيفي حار كانا يجلسان في الشرفة يشربان من قنينة نبيذ، ويتحدثان بصوت هادئ. الشارع في الأسفل كان شبه فارغ، والمدينة غارقة في صمت ثقيل. بدا هادئا أكثر من المعتاد، وهذا ما جعلها تشعر بعدم الارتياح.

وقفت إيرينا قرب حافة الشرفة للحظات قبل أن تحس بيده تدفعها. لم تكن دفعة قوية لكنها كانت حقيقية. اِختل توازنها، وشعرت بالخوف يتسلل إلى جسدها بالكامل. تمسكت بعمود حديدي أعاد لها التوازن وأنجاها من السقوط. بقيت لثوان عاجزة عن الكلام، فقط تحاول استيعاب ما حدث.

أما هو فلم يتحرك. بقي واقفا ينظر إليها في صمت، ثم سألها بهدوء: هل أنتِ بخير؟

نظرت إليه إيرينا وفي تلك اللحظة فهمت شيئا مرعبا، أن هذا الرجل حاول أن يقتلها فعلا، وربما في مكان مظلم داخل خياله كان يريد أن يراها تسقط.

أدركت أن الأمر لم يكن عفويا كما حاولت أن تقنع نفسها. يداه اللتان كانتا تضغطان على عنقها، كلما اقترب منها أكثر، لم تكونا تبحثان فقط عن اللذة بشعور السيطرة، بل كانتا تبحثان عن شيء آخر: شيء مظلم يعيش داخله منذ زمن طويل.

ظنت الأمر مجرد تصرف غريب، لحظة يفقد فيها السيطرة على نفسه في لحظة انتشاء، لكنها فهمت الآن تلك النظرة في عينيه، نظرة شخص لا يعيش اللحظة معها، بل يعيش شيئا آخر داخل رأسه، شيئا أكثر عنفا وأكثر رعبا. عندما كانت أنفاسه تتغير، فجأة، ويبتعد عنها ذهنيا رغم قربه الشديد منها كأنه يرى مشهدا لا تراه هي، مشهدا يجعله يضغط أكثر، ويقترب أكثر، وفي كل مرة بعد أن يتركها تلتقط أنفاسها بصعوبة، يعود إلى الهدوء بشكل مقلق كأن شيئاً لم يحدث أبدا.

07

"هل هو عبور إلى عالم آخر، أم عملية انتزاع لقناع الخير؟"

داخل القبو..

الضوء، الشاحب المتسلل من مصباح بالخارج، رسم على وجه نور (بطل رواية القربان) خطوطا متكسرة تشبه حياته التي تلاشت، ولم يتبق له منها شيء.

جلس هناك على كرسي، كتفاه منكسران كجناحين أرهقهما الطيران في اتجاهات لم تكن تخصه أبدا، يداه مستريحتان على ركبتيه كمن تعب حتى من رفعهما للدفاع عن نفسه.

كم مرة حاول أن يملأ حياته بمعان لم تصمد؟ كم مرة أقنع نفسه أن الصبر فضيلة، وأن الطيبة لا تخون أصحابها؟

تذكر وجوههم جميعا: أولئك الذين ابتسم لهم وهو ينزف من الداخل، العائلة، الأصدقاء الذين عرفوا كيف يمتصون دمه،

والغرباء الذين لم يترددوا في مص ما تبقى من دمه حين كانوا بحاجة لذلك.

مرر يده على أغراض أراد أن يراها لآخر مرة: أوراق قديمة، صور باهتة، أشياء صغيرة احتفظ بها ظنا أنها تمنح الأيام قيمة.

لمس علبة معدنية، أحس ببرودتها، رفعها ببطء كمن يحمل قلبه خارج صدره لأول مرة، تناول ما بداخلها من حبوب بيضاء.

كان كل شيء ساكنا. الساعة على الجدار توقفت عن إصدار صوتها المزعج كأنها توافقه أخيرا على أن الوقت فقد معناه. لا شيء يلح عليه سوى التعب، ذلك التعب القديم الذي استقر في عظامه كضيف أبدي.

أغمض عينيه للحظة، شعر أن الهواء صار أخف، أن صدره لم يعد يئن كما اعتاد، أن الضجيج في رأسه بدأ يخفت. بدا الأمر كأنه

غرق بطيء لكنه غرق دافئ لا يقاومه الجسد بل يستسلم له بسرور غير معلن. اِبتسم ابتسامة باهتة لكنها حقيقية كأنها وداع صغير للعالم، أو ربما لنفسه.

كان أعضاء مجموعة الدارك ويب "الذين يختفون" ينظرون إلى جسده وهو يرتخي باستمتاع وهدوء، رفعوه بحذر كأنهم يحملون بقايا حلم هشّ على وشك التلاشي. جسده الآن أكثر شبها بظل ثقيل من لحم وعظم، كتلة رخوة منزوعة الإرادة، بلا هوية و لا ذاكرة. وضعوه فوق سرير داخل القبو، وتركوا عند رأسه رسالة.

نص الرسالة:

لقد عدت من الموت… لكن الموت لم يكن النهاية التي كنت تتخيلها.

هناك أشياء تعيش خلف خوفك، في الزوايا التي ترفض النظر إليها، في ذلك الظل الذي قضيت عمرك تحاول دفنه تحت أقنعة النقاء والطمأنينة. نحن نراك الآن… نراك كلما ارتجفت أمام حقيقتك، وكلما أقنعت نفسك أنك خلقت لتكون نورا فقط.

أنت مخطئ.

الذي يهرب من ظلامه، يتحول إلى فريسة له.

والإنسان الذي يسلّم نفسه للظلام بالكامل، يبتلعه الفراغ، فينسى اسمه.

الحكمة ليست في قتل الوحش داخلك… بل في النظر إلى عينيه دون خوف، وفي أن تتعلم كيف تبقي النور والظلام داخل روح واحدة.

إذا لم تتخلص من خوفك… وإذا لم تتصالح مع الجانب الشرير فيك… سنتركك حيا، لكنك لن تعرف الراحة مرة أخرى.

سنمزق نومك، ونحول أفكارك إلى متاهة، وستتمنى الموت ألف مرة دون أن تصل إليه.

لقد فتحت بابا في داخلك …

ومن يفتح ذلك الباب لا يعود الإنسان نفسه أبدا.

08

"لم أعد أُفرّق بين الخيال وما يقع أمام عيني في الواقع. كل حادث، كل تزامن، كل رؤية، تؤكد لي أنني أعيش في عالمين. ربما أصبت بالجنون."

في اللحظة التي كان فيها الكاتب يظن أنه يعيش حياة لا شيء مثير فيها، حياة تمضي بإيقاع ممل. كان شيء آخر، في مكان ما، يتشكل ببطء. شيء يتسلل من بين أسطر روايته، يتكاثف، يتخذ هيئة فكرة عميقة ومظلمة في الآن نفسه، ثم ينتشر ببطء في عالم موصد الأبواب.

لم يكن يعلم أن روايته التي كتبها فقط هروبا من اختناق داخلي كان يأكل روحه، لا رغبة في مجد أدبي، قد خرجت من حدود الورق. لم يكن يعلم أنها تحولت في عالم آخر إلى كتاب مقدس لطائفة سرية يتلاشى في معتقداتها النور والظلام، طائفة تسمي نفسها: قربان زحل.

بعيدا عن الأعين كان أتباع الطائفة يُمارسون طقوسهم منذ زمن بعيد. في كل سبع سنوات يبحثون عن مُخلص لهم، عن الكائن الذي يكسرون من خلاله هيمنة زحل، الكوكب البارد الذي يلوّن مصير الإنسان بالثقل واليأس حتى يتعلم ويصل إلى معرفة عميقة

بنفسه، وتتجلى له مهمته في تجربته الأرضية.

لا أحد يعرف من أسس هذه الطائفة السرية أو متى. أساطير متآكلة تقول إنها ولدت في حضارة ابتلعها الرمل والعدم، حضارة تمردت على الآلهة، ورفضت الخضوع لها. حضارة آمنت بأن الظلام ليس شيئا يطرد، بل يعانق. لكن هذه الحضارة اختفت، ولم يبق منها إلا فتات من الحكمة، وجمرات تعاليم أعاد إحياءها شخص مجهول الهوية في منتصف الستينيات في برشلونة.

كان مجهولا تماما كأنه لم يولد أصلا. كتب أوراقا مخطوطة بالدم والرماد والدموع عنوانها: أوراق أنوكسي المقدسة، لم ينسخ منها سوى نسخ معدودة وزعت على نخبة مختارة، ثم اختفى كاتبها كما ظهر.

لاحقا، عندما أصبحت خصوصية هذه النخبة مهددة، انزلقت الطائفة نحو العوالم السفلية لشبكة الإنترنت، هناك تحولت إلى

أشباح رقمية لا ترى، لا تلتقط، تحكمها روح مجهولة لا وجه لها ولا اسم، تعرف فقط بلقب: الظل الأخير.

وقعت الرواية يوما بالصدفة بين يدي واحد من كبار خدام الطائفة، شعر لحظة فتح أول صفحة منها أن شيئا ما في جسده يتحرر، يتملص من قبضة مصيره المكتوب، نصوصها، وأفكارها جعلته يعتقد أن صاحبها يعرف السر، قبل أن يهمس صوت في رأسه أن كاتب هذه الرواية هو المخلص الذي يبحثون عنه: قربان هذا العصر.

في عقيدة الطائفة يولد كل إنسان مربوطا بسلسلة غير مرئية إلى إرادة زحل. و هذا الكوكب هو عين عمياء تدور حول مصائر البشر، تسجنهم في دورة من البطء والكآبة. كل شيء محفور في سجل يسمّونه لوح الظلال: قصة الفرد، مصيره، و نهايته.

هم لا يكرهون زحل، ولا يغضبون منه، بل يعتبرونه مثل معلم صارم، وأب قاس.

يقسمون في طقوسهم أنهم سيكسرون القيد، ويستعيدون السيطرة على مصائرهم، لكن طريق التحرر يمر

عبر شرط واحد: العثور على المخلّص كل سبع سنوات، وتقديم روحه قربانا لكوكب زحل.

الانضمام إلى الطائفة ليس أمرا سهلا. لا يمكن للإنسان أن يصبح منتسبا لمجرّد أنه يريد ذلك، فهناك اختبارات قاسية بعضها عقلي، وبعضها روحي، وبعضها جسدي، استحقاق طويل يمر خلاله المرشح عبر عتبات مظلمة حتى يتم منحه اعتراف الدخول خلال اجتماع ضيق يُقام مرة في السنة.

هؤلاء ليسوا باحثين عن تحقيق الذات في هذه الحياة، ولا عن تلك الأحلام البسيطة التي يركض وراءها أغلب البشر. لا أحد منهم يشعر أنه في حاجة إلى شيء مادي، فقد فهموا لعبة الوفرة مبكرا، وصنعوا مصادر ثروات تجعل معظم سكان الأرض عاجزين عن التنافس معهم. لكنهم كانوا يبحثون عن

شيء آخر: مجتمع يستطيعون عبره الإبحار عميقا في عتمة أنفسهم، ومصالحة الظلال المختبئة فيهم: تلك المناطق المظلمة التي يخاف البشر العاديون الوصول إليها ويهربون منها، و على الملتحق الجديد أن يعيش حياة موازية وسط عائلة روحية كبيرة تحميه، تعلمه، وتوفر له كل وسائل التطور حتى يغوص في ظلامه دون ذنب، ودون صراع أخلاقي.

في تعاليم الأنوكسي: الظل ليس شرا، بل هو الجزء المخفي من الذات، الجزء الذي يخشى الإنسان أن يراه الآخرون، هو الصندوق المغلق الذي تختبئ فيه الرغبات المحرمة، والخيالات، والمخاوف. هو ما يطل أحيانا بلا إذن في الحياة، فيظنه الناس قدرهم، ومصيرهم المحتوم.

لكن في معتقدات الطائفة لا يُطرد الظل، و لا يجب تدميره أو الهرب منه، بل يعانق، يُنصت له، يُكشف قناعه. لأن في عتمته يسكن جزء من النور، ولأن مواجهة الظل والاعتراف

به هو الطريق الوحيد للتحرر من تأثير زحل.

بحسب أوراق أنوكسي المقدسة، وهو الكتاب الأكثر قدسية لدى طائفة قربان زحل، فإن الإنسان يمتلك العالم إذا عرف السر الأعظم: الواقع هو انعكاس للأفكار التي يُخفيها البشر في الأعماق.

واحدة من أهم تعاليم أنوكسي تقول: "معاناتك هي تجل لصراع داخلي عميق بين النور والظلام".

و هذه الفكرة هي الخطوة الأولى في رحلة التحول من إنسان عادي إلى واحد من أتباع الطائفة. قليلون فقط من يملكون الشجاعة لتقبل هذه الفكرة رغم أنها تبدو بسيطة، لأن فيها اتهاما مباشرا للإنسان: أنت المسؤول عن كل شيء.. أنت المسؤول عن معاناتك، وأنت من يقرر أن يكون حرا أو عبدا.

في اللحظة التي كان فيها الكاتب ينام في شقته الصغيرة في طنجة كانت الطائفة كلها تستعد للاقتراب منه. لم يكن يعلم أن عبارة قصيرة على لسان بطل روايته قد فتحت بوابة وسط الظلام.

"الآن أنا قادر على معانقة النور والظلام الذي في داخلي... أنا الآن أتحرر."

كانت تلك العبارة، هي الإشارة، هي العلامة، هي بداية النهاية.

و الكاتب لم يعد مجرد مؤلف لنصوص من خياله، بل أصبح حامل الشارة، صاحب السر، القربان المخلص.

و الطائفة كانت قد بدأت العدّ التنازلي فعلا لكسر قيد كوكب زحل على مصائرهم خلال السبع سنوات القادمة.

09

"ربـمـا أكـون قـد أصبـت بـالـجنـون"

اِجتماع غير مسبوق لكبار خُدّام طائفة قربان زحل يوشك على الانطلاق.

لحظة طال انتظارها مثل صخرة هائلة جاثمة فوق صدور الأتباع اللذين يعيشون تحت سلطة الكوكب البارد الذي لون مصائرهم بلون رمادي لا حياة فيه، فباتوا الآن يترقبون إعلان اليوم الذي يتحررون فيه من إرادته.

أعين الأتباع كانت تتجه نحو الأفق كأنها تنتظر شرارة أولى تعلن فتح بوابة حياة أخرى. لم تبق سوى أيام قليلة تفصلهم عن بداية فصل جديد من الوجود، فصل يتلاشى فيه الخضوع، وينطفئ فيه سلطان القوى التي تجلس كحجر ثقيل فوق صدورهم.

هي أرواح آمنت بما قرأته في أوراق أنوكسي المقدّسة، تلك المخطوطات التي ظهرت من الظلام كأنها رسالة من عالم آخر، تعدهم بالخلاص حين يتم العثور على قربان العصر.

في طقوس الطائفة، تقديم روح قربان العصر في مذبح زحل لا يعني فقط نهاية دورة من الحياة، هذا الطقس يعني أن الأتباع سيتحررون لسبع سنوات أخرى من طوق الكوكب الذي يحكمهم بقبضة لا ترى، وسيُصبحون قادرين على التحكم في مصائرهم كما يشاؤون.

في تلك اللحظة، حسب ما تقول التعاليم، سيتحول كل ما يفكّر فيه المؤمن إلى حقيقة في لمح البصر من دون الحاجة إلى المرور من تجربة الألم والانتظار. هذا الوعد كان يجعل الأتباع الجدد ينامون وقلوبهم مضطربة، يحلمون بيوم يصبح فيه التفكير قوة، والرغبة سهما، والنية قدرا قابلا للتشكيل.

الملتحقون الجدد لم يكونوا يصلون إلى ما يسمى بالتحرر النسبي من قبضة زحل إلا عندما يطبّقون ما يمليه الظل الأخير عليهم حرفيا.

الظل الأخير ليس مجرد لقب، هو المرشد الأعلى، والمترجم الوحيد لإشارات الكوكب وتأثيرها على التابع الجديد.

تبعا لدرجة الإحباط التي يعاني منها التابع في حياته كان المرشد يحدد له سلسلة من الأوامر المستوحاة من أوراق أنوكسي. هي أوامر لا تحتمل نقاشا أو تفكيرا، أوامر قاسية تتراوح بين إخضاع الشخص لنفسه أو لضحيته لألم نفسي ممتد، وبين القتل بأساليب أبشع مما يستطيع أي خيال بشري تصوره.

طقوس مرعبة تجري في أقبية بيوت مهجورة تحت الأرض، في غابات معزولة لا يصلها أحد.

طقوس يعرفها الكبار، ويشارك فيها الأتباع، ويباركها زحل كما يعتقدون لأن زحل كما تقول الأوراق لا ينتشي إلا بالخوف، ولا يقتات إلا على الألم.

كل التعذيب، القتل، والدماء تصبح ذكرى بعد تقديم قربان العصر، ولن يكون الأتباع بعد هذا الطقس مضطرين للقيام بأي فعل بشع لإرضاء الكوكب، و لسبع سنوات متتالية سيصبحون أحرارا. سيتحولون من عبيد للخوف إلى سادة يكتبون أقدارهم. هكذا تقول الأوراق، وهكذا يؤمنون.

في تلك الليلة كانت الغرفة التي يجتمع فيها كبار خدام الطائفة تبدو كأنها امتداد للظلام نفسه. غرفة واسعة بلا نوافذ، جدرانها الحجرية السوداء تجعل المكان يبدو أكبر وأعمق مما هو عليه.

جلس كبار الخدام حول طاولة حجرية مستطيلة الشكل، وجوههم هادئة لكنها مرهقة كأن السنوات التي قضوها في خدمة الطائفة أكلت أجزاء من أرواحهم، و رغم ذلك كان في قلوبهم فرح عميق، ورُعب كبير: فرح لأنهم على وشك الوصول لبداية جديدة، و رعب لأن هذه البداية، كما يعرفون، لا تتأتى بدون ثمن.

في زاوية الغرفة كانت شاشات صغيرة، موزعة بطريقة هندسية مبهرة، تمرّ عليها صور للكاتب، الكاتب الذي لم يكن يعلم أنه أصبح محور حياة آلاف البشر في عالم لم يره يوما. كانت صوره تظهر ثم تختفي، وخلالها تظهر مقولات قصيرة من روايته.

الجميع كان يعرف أن الكاتب ليس مجرد كاتب. هو شيء آخر، شيء لم يقدر أحد على تسميته بدقة لكنهم جميعا أيقنوا أنه القربان الذي بشّرت به أوراق أنوكسي.

عندما دخلت الآنسة أكسي الغرفة خيّم الصمت. لم يكن الصمت المعتاد، بل صمتا يشبه انطفاء العالم. كل العيون التفتت نحوها... كانت ترتدي لباسا أسود براقا ينساب على جسدها كأنه جزء منه، شعرها الأسود كان مرفوعا بطريقة تجعل ملامحها تبدو أكثر صرامة. عيناها كانتا أكثر برودا من كوكب زحل.

أكسي لم تكن مجرد خادمة عادية، بل كانت المكلّفة بما يُسمى طقس اليوم الأخير: الطقس العظيم الذي ستُفتح بعده بوابة التحرر، الطقس الذي سيجعلهم يتحررون من زحل لسبع سنوات، الطقس الذي سيقدّم الكاتب قربانا.

وقفت أكسي أمام الطاولة، وضعت يدها فوق صدرها، وانحنت قليلا احتراما لكبار الخدام. رفعت رأسها ونظرت إليهم بعين ثابتة: "الوقت حان. لقد تم تحديد الموقع

و بدأ العدّ التنازلي... كل شيء يسير وفق ما تنبأت به الأوراق".

اِرتجف البعض، تنهد البعض الآخر، ولمعت عيون مرشد الطائفة خلف قناعه الحجري الأسود الذي يخفي ملامح وجهه.

تابعت أكسي بصوت بارد: "استعدّوا، فطقس هذه المرة ليست مثل ما عرفتموه من قبل.

هذه المرة لن نضحي بظل من ظلال البشر، سنضحي بقربان نادر لا يقدم إلا مرة واحدة في كل دورة زمنية".

تساءل أحدهم بصوت خافت: "هل... يعلم؟ ".

اِبتسمت أكسي ابتسامة فارغة من أي مشاعر: "لا، و لن يعلم... و لن يفهم أبدا لماذا اختير هو دون غيره". ساد الصمت مرة أخرى. ثم همس آخر: "هل هو مستعد؟".

رفعت أكسي نظرها نحو الشاشة التي تعرض صورة الكاتب، وقالت: "هو مستعد منذ ولد، و هو لم يكتب الرواية، بل الرواية كتبت نفسها فيه، وهذا وحده يكفي".

أُطفِئت الأنوار فجأة، ولم يبق إلا وهج أضواء حمراء خافتة. رفع المرشد يده، وقال بصوت عميق: "لقد آن الأوان لنتحرر من إرادة زحل، آن أوان الدم الأخير".

ثم التفت نحو أكسي: "كل شيء بين يديك الآن".

لم يومض في وجهها أي أثر للرهبة. كانت تعرف أن مهمتها قد تكون أكبر مما تتخيل، وتعرف أكثر أن الاقتراب من الكاتب لن يكون مهمة سهلة، فالرجل رغم أنه لا يعلم شيئا عن هذا العالم، محمي بقوة غريبة، بحسب معتقداتهم.

10

"يُغادرون عندما يصلون إلى حقيقتي المظلمة التي لن تتغير يوما ما، ولن يقوى أحد على تغييرها."

مرت ثلاثة أسابيع تقريبا على اختفاء إيرينا عن الأنظار، وقطعها لأي تواصل مع ريان.

طوال تلك الفترة كان يبحث عنها في كل مكان كطفل صغير، كمن فقد عقله، لم يجدها... كأنما انعدمت من هذا العالم حتى حل يوم أرسلت له فيه نصا تقول فيه: "ابتعدت خوفا عليك … آسفة".

سؤال واحد يرهقه: لماذا اختفت دون أن تمنحه سببا يستند إليه؟ كان سيقبل بالرحيل لو شرحته، كان سيُساعدها حتى لو قالت إنها لم تعد تطيق النظر إلى وجهه.

لكنها اختارت الصمت وتركت في صدره مساحة تتآكل مثل جرح مفتوح.

كان ريان قد تخلى عن إتمام رواية (هل لديك اسم آخر؟) مدة من الزمن، ثم عاد لكتابتها فقط لأجلها، فقط لأنه كان يلاحظ

استمتاعها بالتفاصيل أثناء تجسدها على الصفحات المولودة أمامها.

كانت تصمت طويلا حين يقرأ لها بعض المقاطع، صمت لم يكن يفهم سببه أبدا: هل كان صمت إعجاب بما يكتب؟ أم صمت شخص يعرف أشياء أكثر مما يعرفه الكاتب نفسه؟.

بطل الرواية لم يتخيله ريان أبدا مثلما كان عليه، لم يرد له المصير الذي صممته إيرينا، كان يرغب أن يطول صراعه، أن يتمزق أكثر، أن يبقى حيا حتى ولو كان مكسورا. لكن هي قررت أن يختفي سريعا. كانت تحب النهايات المفتوحة، تعشق الحيرة. و ها هي جعلته يعيش داخل نهاية مفتوحة لا يعرف لها سطرا أخيرا.

لا تزال كلماتها مكتوبة في دفتر ملاحظاته: "الجميع ينتظر الانتقام بعد اكتشاف البطل للحقيقة. لمَ لا نتلاعب بالنهاية؟، فيقرر

البطل أن يختفي، أن يترك الجميع في حيرة و قلق دائمين."

تلك ملاحظاتها في بناء الرواية، وما أغرب أن تتحول روايات الكتاب غالبا إلى ما يعيشونه لاحقا وكأن الكلمات كانت نبوءات صغيرة لا يلاحظها أحد.

تذكر أنه لم يزر بيت أمه لأكثر من أسبوع.

سؤال اختفاء إيرينا من حياته لم يفارقه طوال طريقه نحو بيت أمه، كان يتمنى أن يخفف حضن أمه من حالة الضياع التي يعيشها. كانت فكرة ألا تصبح إيرينا موجودة في حياته وخياله مرعبة أكثر من كوابيسه.

تأمل ريشة صغيرة تذروها الريح، تدور، ترتفع، تسقط، لتعود إلى الارتفاع، و في لحظة ما شعر أن هذه الريشة تشبهه، لا وزن لها، و لا قيمة مثله، تتحكم فيه وفيها

رياح لا يعرف مصدرها. نسخة باهتة من أشياء كثيرة، تافهة، مكررة، مرميّة على هامش الطريق... و حين أدرك هذا المعنى شعر بمغص قوي في بطنه و رغبة في التقيؤ، أو ربما كان كل ذلك مجرد وهم.

كان يريد أن يُسكت كل ذلك الضجيج داخل رأسه، سأل نفسه فجأة: كم شخصا في هذا العالم يشعر الآن بشعور الانعدام الذي يشعر به؟، ربما الجميع كذلك، أو ربما لا أحد. هل يوجد حقا من يعيش دون إحساس بالانعدام؟، لم يكن يعرف، لم يعد يريد أن يعرف.

كان فقط يحاول التحايل على مزاجه المتكدر، قال في نفسه: "أنا منعدم، أو في طريق الانعدام.. وما المشكل في ذلك؟"، هذه العبارة وحدها رسمت ابتسامة غير مكتملة على وجهه، ابتسامة بدت مؤقتة لكنها صادقة، بل أكثر صدقا من تلك الابتسامات التي كان يرسمها في عوالم مزيفة.

تساءل بعمق: "ما الذي يجعل البشر يبتسمون رغم أنهم ينزفون، هل يبتسمون حتى لا يتركوا للحياة فرصة أن تعتبرهم سيئين"...

ما كان يثير استغرابه حقا هو: كيف استطاع أن يستمر في الابتسام كل هذه السنوات؟، ما الذي كان يمنعه من الانفجار في وجوه بعض أبناء العاهرات الذين صادفهم في طريقه؟، ما الذي كان يردع يده عن صفع أحدهم؟ ما الذي كان يمنعه من البصق على وجوه غبية؟. لم يكن لديه جواب. لا جواب مسعف على الإطلاق.

في خضم هذا السيل من الأفكار سمع نقرا خفيفا على زجاج نافذة السيارة، التفت فإذا هو العم نعمان يبتسم ابتسامة أعادت للعالم شيئا كان يفتقده، فتح الباب، عانقه، ثم قال: "أمك في انتظارك، و أنا سأعود للبيت بعد قليل".

المشي نحو المنزل بدا وكأنه دخول إلى ذاكرة مؤجلة.

الأم: - هل أنت جائع؟

ريان: - لا، لكن سأذوق من هذه الحلويات اللذيذة.

(صمت)

الأم: - لقد اتصل بي الدكتور المهدي.. لماذا لم تذهب إليه؟.

ريان: - أشعر أنني في حال جيدة… مضيعة للوقت…

الأم: - وهل تتناول دواءك بانتظام؟.

ريان: - ماما أرجوك... هل من الضروري أن تسألي نفس هذه الأسئلة في كل مرة أزور فيها المنزل؟

اِشتاق كثيرا لهدوء منزل عائلته، هدوء لم يشعر به في أي مكان آخر. دخل إلى غرفته فوجدها مرتبة كما تركها نظيفة، باردة قليلا، و لا شيء تغير فيها كأن الزمن تردد قبل أن يمسها.

جلس على السرير فأصدر أزيزا خفيفا أعاده إلى الواقع، رفع رأسه وتأمل السقف، شعر بشيء يشبه الارتياح، ثم تذكر أن لديه في أدراج مكتبه أشياء كثيرة تركها قبل سنوات.

اِقترب ببطء كأنه لا يريد إفساد السكينة المسيطرة على المكان. فتح الدرج الأول. كل شيء كان كما هو كما لو أن الزمن توقف هنا تحديدا. كان قد جمع في هذا الدرج ذكريات طفولته، ألعابه الصغيرة، قلادات، تماثيل صغيرة، حجارة، رسائل قصيرة كتبها

ولم يرسلها، شعر فجأة أنه لم يعد يرغب في استعادة أي شيء. لعل ماضيه نفسه يرفض أن يعود.

أغلق الدرج، ثم لم يعرف لماذا أعاد فتحه من جديد، ربما لأن شيئا داخله هتف له: "هناك أمر لم يكتمل بعد".

حينها رآها، رأى الريشة السوداء داخل القنينة الزجاجية. توقفت أنفاسه. تذكر الحادثة: الحادثة التي لم يصدقها أحد والتي يذكر تفاصيلها جيدا، وشعوره حيالها حينئذ: الخوف. خوف لم يعرف له تفسيرا، ولم يجرؤ يوما على محاولة فهمه.

مد يده نحو القنينة الصغيرة وللحظة شعر أن هواء الغرفة تغير، صار أثقل، أبرد، أعمق كأن الريشة كانت تنتظره، كأنها كانت تعرف أنه سيعود يوما ما إليها.

11

"هنـاك أشيـاء تـحدث، لا نـمـلك الـقـدرة على تـفـسيـرهـا لـذلـك تـبـقـى حيـة مـعـنـا طوال حيـاتـنـا."

الحادث الغريب..

في ظهيرة صيف خانقة، و بينما كان ريان يلعب وحده في الفناء الخلفي للمنزل، سمعت الأم صرخة حادة، قصيرة لكنها تحمل ألما يصعب تعريفه، صرخة لا يمكن لطفل في عمره أن يطلقها إلا لو اختبر شيئا يتجاوز طاقة البشر.

الأم كانت تسبق جميع المهرولين وراءها بخطوات، تتباطأ فجأة كأن شيئا خفيا يجرها إلى الخلف أو يحذرها من الاقتراب، إحساس بخوف غريب تمسك بها كما يمسك الظل بقدم كائن يحاول الهروب.

كان ريان هناك. طفل صغير ينتفض جسده، وجهه مصفر كأنه استيقظ للتو من كابوس لم ينته، عيناه متسعتان بشكل غير طبيعي ملؤهما نظرة ذعر تجمع بين الفزع والدهشة. يحاول خلع قميصه الأزرق بعنف، ترتجف أصابعه وهو يتمتم بصوت متقطع لا

يكاد يُسمع: "لقد... لقد أكل طائر أسود... أكل قلبي...".

تجمّدت الأم من هول المشهد، رفعت يدها إلى فمها كمن يحاول منع صرخة أخرى من الهروب. أما العم نعمان فتقدم نحوه بخطوات مترددة كأن الأرض تحت قدميه لم تعد أرضا، بل سطحا غريبا يخشى أن ينهار في أي لحظة.

"ماذا تقول يا ريان؟" سأل العم بصوت حاول جاهدا أن يكون هادئا لكن ارتعاشه فضح رعبه. رفع الطفل عينيه ببطء، ثم همس: "الطائر... كان عملاقا... جناحاه... غطيا الشمس... ثم... شعرت بمنقاره هنا " مشيرا إلى صدره، إلى الجهة اليسرى تحديدا، ثم شهق فجأة، وجثا على ركبتيه.

هرعت الأم إليه، ضمته كما لو أنها تريد أن تعيد قلبه إلى مكانه، كانت تكرر بلهجة مرتعشة: "أنت بخير يا حبيبي... لا

تخف… إنه مجرد حلم… حلم يقظة فقط يا ريان".

لكن العم لم يكن متأكدا، هناك شيء في عيني الطفل، شيء في نبرة صوته، شيء في طريقة انهياره، شيء منعه من تصديق أن ما حدث كان مجرد تخيلات طفل.

مرّت الأيام التالية ثقيلة، لم يتحدث أحد عما حدث. الأم كانت أحيانا تروي القصة للجارات وكأنها طرفة حزينة محاولة قدر المستطاع تخفيف وقعها، و التقليل من أهميتها. الجيران يضحكون، و يجارون الأم في قولها أن الحادث مجرد هلوسات طفل، لكن الطفل نفسه لم ينس، لم يستطع النسيان.

ذلك المشهد: الطائر الأسود العملاق، الجناحان اللذان غطيا الشمس، المنقار الذي انغرس في صدره، يعاوده كل ليلة على شكل كابوس.

بداية كان يبكي ويصرخ، ثم بدأ الصراخ يقل، كلما تكرر الكابوس، بفعل التعوّد والاعتياد، وعندما يتعوّد الطفل على كابوس ما فهذا يعني أن شيئا مظلما يتحرك في داخله.

أصبح هوسه بالطيور واضحا، كان يقضي ساعات طوالا في التحديق إلى السماء، عيناه تلاحقان أي جناح يعبر فوقه. يبحث عن طائر لا يعرف اسمه، لا يعرف شكله الكامل فقط يتذكر ظلّه، وصوت جناحيه، ووقعه على قلبه.

كانت غرفته مملوءة بصور الطيور، رسومات أجنحة، خرائط هجرة، وقصص عن أنواع منقرضة يحفظ أسماءها، أنواعها، طرق طيرانها، أشكال مناقيرها لكنه لم يجد الطائر الأسود، الطائر الذي قال إنه أكل قلبه.

ذات مساء اقترب العم نعمان منه خلسة بينما كان يرسم على دفتره طائرا بجناحين

هائلين يمتدان فوق كامل الصفحة، سأله بصوت مشوب بالحذر: "ما الذي تبحث عنه يا ريان؟". لم يرفع الطفل رأسه و أجاب ببرودة: "إن استطعت معرفة اسمه… فسأعرف بالتأكيد كيف أستعيد قلبي".

لم يعلق العم، تركه ورحل، لكنه في طريقه إلى غرفته شعر بارتجاف في أطرافه لأنه يعرف أن كلاما كهذا لا يمكن أن يصدر عن خيال طفل.

مرت السنوات حثيثة، وكبر ريان إلا أنه ظل طفلا صغيرا يبحث عن قلبه.

كان يحمل في داخله جرحا لا يلتئم، جرحا لا يراه أحد لكنه ينزف كلما أغمض عينيه، وكلما لمح ظل طائر فوقه، أو سمع رفرفة أجنحته.

لم يعد يشارك الآخرين قصته، فهم سريعا، بل أسرع مما يجب، أن البشر لا يهتمون

بآلام غيرهم، وإن أظهروا اهتماما فلسببين: السخرية أو الابتزاز، لهذا أغلق فمه، دفن القصة لكن القصة لم تندفن، كانت تنبعث كل ليلة كما الأشباح.

عندما دخل الجامعة حمل معه عوالمه تلك أثناء كتابة أول قصة قصيرة له، كان عنوانها: "أعد لي قلبي"، كتبها كما لو أنه يفتح بوابة بينه وبين كابوسه. لم ينم ثلاثة أيام عكف فيها على الكتابة بجنون كمن يفرغ روحه في سطور. لم يكن يريد إعجاب أحد، لم يكن يريد مدحا أو تصفيقا، كان يريد فقط أن يعيد تركيب ملامح الكابوس حتى يراه بوضوح بعض الشيء.

لكن الطريق إلى التحرر كان مليئا بالعقول البلهاء الهدامة. عندما قرأ أستاذه القصة لم يُبدِ أي انفعال، نظر إليه نظرة باردة، وقال: "هذا... هراء لا يرقى إلى أن يكون قصة قصيرة "، ثم أضاف أمام زملاء الصف بصوت يتعمّد الإذلال:

"أنت متأثر بكوابيس إدغار آلان بو... لكنك لست هذا الكاتب العظيم... ولن تصبح مثله. ينقصك الكثير... الكثير."

قهقه بعض الزملاء، وآخرون تبادلوا نظرات مشفقة، لكن ريان كان يعيش في عزلة داخلية أعمق من أن تخترقها كلمات أستاذ مغرور، أو ضحكات تافهة. كان يقول لنفسه في تلك اللحظة: "لم يكن عليّ أن أشارك هذا الكابوس مع هؤلاء الأغبياء... ما الذي يُضحكهم؟ ما الذي فهموه أصلًا؟".

تابع أستاذ الكتابة الإبداعية هذه المرة بنبرة أبوية مصطنعة: "هذا ليس تقليلا من موهبتك يا ريان... لكنني كنت أتوقع قصة أفضل... المحاولات الأولى دائما هكذا". رفع ريان رأسه، أخفى غضبه بابتسامة باهتة، ثم قال: "لا بأس... سأفكر في قصة أخرى... بعوالم مختلفة"، كلماته كانت هادئة لكن صدره كان يحترق.

12

"البحث في أعماق الآخر يجعلنا نصل إلى أسرار مبثوثة في أنفسنا لم نكن نعرفها."

سافرت أكسي إلى طنجة بحثا عنه. لم يكن في الأمر أي تردّد، ولا حتى لحظة واحدة من الشك. تعلم، منذ أن قرأت أول سطر من روايته، أن الرجل الذي كتبها كائن ليس مثل البشر. كانت تعرف عالم الرواية، دهاليزها، شخوصها، ورائحة الظلام التي تنبعث من صفحاتها.

مدينة طنجة لم تكن مجرد محطة، كانت طقسا من طقوس العبور. كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر: لحظة أن تراه، أن تلتقط ملامحه، أن تتأكد إن كان يشبه نفسه كما في خيالها.

فور وصولها بدأت تراقبه من بعيد. لم يكن يعرف بوجودها، ولم يكن يجب أن يعرف. كانت تشعر أن العدّ التنازلي لمهمتها بدأ منذ أن وطئت قدماها أرض هذه المدينة. الوقت يضيق من حولها كحلقة نار، وكل خطوة تقوم بها تُشعرها أنها تقترب من شيء أكبر منها. حاولت استحضار أي خيط قد يقودها إلى داخله، إلى حياته، إلى غرابته.

"في ذلك البلد كل شيء يُشترى بالمال"، هذه العبارة سمعتها قبل سفرها من كبار الخُدّام في الطائفة، أولئك الذين يعرفون كيف يشترون الذمم، ويبتاعون الأسرار.

استطاعت الوصول إلى معلومات تبدو دقيقة عنه، كأنها كانت تتصفح كتابا عن حياته: علاقاته العاطفية غير الكاملة، أصدقاؤه القلائل، أفراد عائلته، صور من داخل شقته، وحتى تفاصيل حسابه البنكي.

كانت تغوص أكثر فأكثر وكلما اتسعت دائرة معرفتها عنه، ازداد يقينها أنه لا يشبه أحدا، لا ينتمي إلى هذا العالم كما ينتمي الناس إليه: شخصية مركبة، معقدة، ملتوية.

كل معلومة عنه كانت تزيد من غموضه، كل خيط كان يقودها إلى خيط آخر، وكل باب يفتح بابا آخر خلفه. شعرت في لحظة ما أنها لم تعد تراقبه، بل تضيع فيه.

لم يكن للكاتب أية صداقات حقيقية، أشخاص يعرفهم؟ نعم. صداقات؟ لا. هو شخص لا يسمح لأحد بالاقتراب منه فعلا، الغموض الذي يحيط به ليس موهبة يتصنعها، بل هي جزء من طبيعته. انعزاله ليس موقفا فلسفيا من الحياة، بل جزء عميق من هويته.

كلامه صادم أحيانا، لا يجامل، لا يلين، لا يستطيع الآخرون أن يطمئنوا وهو معهم. من يُحادثه يشعر أنه أمام مرآة تظهر كل ما يريد إخفاءه، لذلك لم يكن غريبا أن يبتعد عنه الجميع، أن يبقى وحده، ليس لأنه يريد الوحدة، بل لأن الوحدة هي الشيء الوحيد الذي يقبل به.

أما علاقاته العاطفية فهي قصة أخرى: لم يكن له حب حقيقي، ولا علاقة تستحق أن تُسمى علاقة. كان يدخل إلى حياة الفتيات كخيال، كشبح، ويخرج منها كأنه لم يكن. لا يترك أثارا عاطفية، بل يترك ندبات. لا يستقر في قصص الحب لأنه لا يؤمن بأن الحب يمكن أن يتحمله، ربما لأنه هو نفسه يرفض أن

يتحمل أحدا. كان يتصرف كمن يرفض أن يشترك أحد معه في مصيره أو في سقوطه.

و كان واضحا من طريقة انسحابه من كل علاقة، أنه يمل من الآخرين بسرعة، وكأن قلوب الناس غرف ضيقة لا تحتمل روحه.

بعد بحث طويل فهمت أنه يعمل صحفيا لا لأنه محتاج إلى راتب يسد به الفواتير، بل لأنه يحتاج إلى غطاء اجتماعي، إلى هوية تجعله يبدو كالأشخاص الطبيعيين.

إلى جانب راتبه المتواضع في محطة راديو، كان يتوصل بمبلغ مالي ثابت يدخل إلى حسابه كل شهر. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا لتعرف أكسي مصدره: أمه كانت من عائلة غنية في شمال المغرب، ورثت ثروة كبيرة عن أبيها، وتلك الثروة وفرت للكاتب حياة لا يحتاج فيها للعمل حتى يعيش.

لم تكن عليه أية التزامات مادية، حتى الشقة التي يسكنها، تلك التي تبدو من خلال الصور كأنها مخبأ سري بعيد عن الأعين، كانت في ملكه. كل هذه العوامل تجعل الوصول إلى دواخله أمرا بالغ الصعوبة، وهذا كان يرهق عقل العميلة أكسي. بدأت تعي أنّ ما يغريه ليس ما يغري الناس.

لا النساء، لا المال، لا الشهرة، لا الأصدقاء، بل شيء آخر، شيء لا يمكن تحديده، أو الوصول إلى بسهولة.

ما أدركته هو أنها أمام رجل يبتعد عن العالم لأنه يخاف أن يبتلعه، رجل يملك القدرة على الهروب الدائم، لكنه أيضا يمتلك جاذبية وإغراء يدفع الآخرين لملاحقته.

رحلتها من أجل الاقتراب منه يبدو أنها ستطول، هذا ما بدأت تشعر به. لن ينفتح بابه لأحد بسهولة، لن يسمح لضوء غريب أن

يدخل شقته أو حياته أو خياله. كانت تعرف أن عليها الاقتراب منه بحذر كما يقترب شخص من تميمة ملعونة، يكفي لمسه بطريقة خاطئة لإيقاظ شر لا يمكن السيطرة عليه.

ومع ذلك كلما ابتعدت عنه بخطوات، اقتربت روحها منه. كانت تقاوم هذا التناقض. تعيش حالة بين الحقيقة و الهلوسة.

لم تعد تبحث عن الرجل الغامض، ولا عن كاتب الرواية، أصبحت تبحث عن شيء فيه يتجاوز المنطق أو المعتقدات. شيء يجعلها تشعر أنها لم تسافر فقط إلى طنجة، بل سافرت إلى طبقة أخرى من نفسها.

هناك، في تلك المسافة بينها وبينه، بدأت تشكّ أنها ليست هنا من أجله فقط، بل من أجل شيء يخصها هي. شيء لا تستطيع تسميته بعد.

13

"أنا أعترف أنني أعيش في متاهة… وأخاف أن أخرج منها ".

أدرك ريان أنه لم يفتح باب شرفة شقته منذ أيام.

لم تعد تستهويه مراقبة خيوط أشعة الشمس القادمة من الشرفة كما كان، ولا طقوسه الصباحية التي كان يعتبرها في وقت ما جوهر حياته: فنجان قهوة، سيجارة أولى، تجوال عينيه في الشارع تراقبان الناس من أعلى وهم يركضون وراء الحياة. هو فقط يكتفي بدور المتفرج، ينسج حبكات رواياته، ويساوم شخوصه حتى يكشفوا له عن أسرارهم.

الآن لا قهوة، لا شرفة، لا شخصيات. لم يعد قادرا على التخيل أو الركض خلف الأفكار و المشاهد.

لم يعد قادرا حتى على مغادرة المنزل.

كان يتنقل بين غرفة النوم وباب الشرفة كطيف شاحب وهو يقرأ خربشات كتبها على ورقة قبل أيام، حين رن الهاتف.

اِسم إيرينا ظهر على الشاشة. توقف لفترة قصيرة يحدّق في الاسم كأنه يراه لأول مرة، ثم ضغط زر الإجابة، سمع صوتها ناعما خفيفا: "كيف حالك؟".

سؤال بسيط، لكنه شعر أنه يحمل ما هو أكثر من المجاملة. نبرة صوتها كانت تميل إلى الفرح كأنها تخفي خبرا جميلا أو مفاجأة، هذا ما اعتقده في البداية. نبض قلبه تسارع قليلا، ترك الورقة فوق الطاولة، واتجه نحو الشرفة.

- "بخير… تقريبا. وأنت؟"

- "أنا بخير… أفضل مما يجب ربما."

صمتت لثوان كأنها تبحث عن تعبير ما، ثم سألته بنبرة مرحة: "هل تعرف ما تاريخ اليوم؟"

صمت للحظات، ثم قال بصوت جاف: "لا أعرف".

اِنفجرت ضاحكة، ضحكة قصيرة طفولية فيها شيء من الماضي القريب الذي افتقده. ثم قالت: "في مثل هذا اليوم… جئتَ إلى هذا العالم يا ريان ".

تذكر أن اليوم عيد ميلاده.

تسللت إلى رأسه في تلك اللحظة صورة مشوهة لإيرينا. ذات وجهين لا وجه واحد: واحد أحبه، عاش معه تفاصيل صغيرة، ضحك، سهر، كتب، حلم، وجّهته نحو حياة كان يظن أنها له. والآخر حاد بارد، ينظر له كموضوع دراسة، كحقل تجارب، ككائن تجب مراقبته. هذه الصورة المزدوجة كانت تزور

عقله أحيانا، لا يعرف من أين تأتي، ولا أي الوجهين هو الحقيقي.

"لمَ أكرهها، أحيانا، وأنا الذي كنت مستمتعا برفقتها، مندهشا بعوالمها، بخيالها الواسع الذي تتلاشى فيه المفاهيم، وتختلط فيه الحدود بين الواقع والخيال؟"

ربما كانت هي الحلقة المفقودة التي كان يبحث عنها في حياته: الحياة التي كان يعيشها وهو في حالة هروب دائم، هروب من نفسه، من طفولته، من ذكرياته، من الطائر الأسود الذي أكل قلبه.

كان في حاجة إلى شيء آخر، إلى شريك، إلى صديق، إلى حبيب يتشارك معه تلك القصص العالقة في مكان عميق جدا من دواخله، العوالم التي يخاف أن يقترب منها لوحده. أراد شخصا يدفعه بخياله إلى عوالم أكثر غرابة.

إيرينا فعلت ذلك، هي من جعلته قادرا على عيش دور الكاتب الذي لا هم له سوى الإبحار في الخيال، هي من انتشلته من الغرق في عالم الصحافة.

أنقذته إيرينا، أو هكذا ظن، من عوالم الجري وراء الأخبار، ومن الاضطرار إلى سماع حماقات أشخاص يتحدثون كما لو أن مصير العالم بين أيديهم، أنقذته من لحظات كان يجلس فيها أمام شاشة ليكتب ما يتفوهون به، ويمنحه شكلا يبدو محترما، مقبولا، قابلا للاستهلاك.

أنقذته من أن يكون جزءً من ماكينة ضخمة مهمتها تسويق الخوف والكذب. كان يكتب، ويشعر أنه يشارك في جريمة جماعية حين يحول مآسي البسطاء إلى قصص ومقالات أملا في اصطياد تعاطف الجمهور.

إيرينا كانت في ذهنه ملاكا أنقذه من هذا العالم المليء بالكذب والنفاق. جعلته يستبدل كذب الواقع بكذب من نوع آخر، كذب

لا يؤذي أحدا، أو هكذا كان يقنع نفسه. كذب جميل يخرج على هيئة شخصيات، أحداث، عوالم متخيلة بعيدة عن آلام الواقع.

- "هل سنسهر الليلة؟"، سألته إيرينا.

أجابها مترددا: - "لا أدري... لست في مزاج جيد".

قالت: - "إنها مجرد سهرة... ثم إن اليوم عيد ميلادك، ألا يهمك ذلك؟ ".

اِستغرب دعوتها المفاجئة كون علاقتهما لم تعد كما كانت من قبل، كل الإعجاب والحب الذي عاشاه، تآكل، ترهّل، وأصبح ذكرى تلوح لهما من بعيد. كل ما يجمعه بإيرينا اليوم هو عقد بأن يخلق معالم واضحة لروايته (هل لديك اسم آخر؟): الرواية التي تريد تحويلها إلى فيلم كما فعلت من قبل مع رواية (القربان) التي تحولت إلى سيناريو اشترته إحدى شركات الإنتاج

العالمية. غير ذلك، صمت، ومسافة تطول بينهما يوما بعد يوم كأنها أفق لا نهاية له.

تردد. ثم قال: "حسنا… أين سنلتقي؟ ".

أرسلت له موقع المكان، وتوقيت اللقاء: الثامنة مساء، في خوسي بار.

وقف طويلا أمام المرآة يطالع وجهه؛ كمن يرى شخصا غريبا؛ يستحضر ملامحها، ضحكاتها العفوية، عينيها… سؤال واحد لم يفارق ذهنه وهو في طريقه إلى خوسي بار: لماذا تريد السهر معي هذه الليلة بالذات، بعد أسابيع من الغياب، بعد صمت طويل؟.

أفكار غريبة ترددت في رأسه، حملته إلى عالم مظلم مليء بالسيناريوهات المتضاربة: هل تريد أن تحيي علاقتنا من جديد؟ أن نكمل الرواية؟ أن تخبرني بشيء ما؟.

لا يعرف لماذا ظل متشبثا بصورة قديمة: أن تمر إيرينا إلى شقته، تطرق الباب بطريقتها الخاصة نقرتين سريعتين يتلوهما صفير طويل، يتلوه ضحك طفولي، قبل أن يذهبا معا إلى خوسي بار.

كان يعلم أن هذا لن يحدث مرة أخرى. أدرك مجددا أن الأمور بينهما قد لا تعود كما كانت.

في الساعة السابعة وأربعين دقيقة، غادر المنزل. كان المكان قريبا من منزله، لكنه تعمد سلْك طريق أطول حتى لا يصل مبكرا. فكر وهو في طريقه إلى مكان اللقاء، أنه ربما كان عليه أن يرفض دعوة السهرة، أو أن لا يجيب على اتصالها من الأساس.

وصل عند باب خوسي بار. صوت أغنية ناتالي لخوليو إغليسياس كان يتسلل من الداخل، يمتزج بأصوات الساهرين، بارتطام الصحون والكؤوس، بضجيج خافت يطمئن القلب:

"ناتالي... كنت هادئا بالأمس، واليوم أنا متعب من الحياة..."

في هذا المكان صنعت الكثير من الذكريات الدافئة. صاحب المحل، السيد خوسي، الذي يمزح معه الجميع بمناداته سان خوسي، رجل حالِم، لبناني عاش في إسبانيا، ثم استقر في طنجة. لا يشارك تفاصيل كثيرة عن حياته، لكنه كان يحب أن يخبر الجميع أنه "هرب من الحرب، فوجد نفسه هنا".

كان يحب خدمة ريان وإيرينا وأصدقائهم بنفسه، ويقول لهم دائما إنه فخور بهم كزبائن أوفياء. زاد حبه لريان حين علم أنه كاتب، وكان يطلب منه، بدعابته المعتادة، أن يجد له مكانا دخل إحدى رواياته: "إذا لم أصلح شخصية... فلتكن حانتي على الأقل جزءً من عالمك"، ثم ينفجر ضاحكا.

رأى ريان إيرينا جالسة على طاولة في ركن جانبي رفقة امرأة شقراء ذات شعر قصير،

تبدو هادئة رغم أنها تنظر إلى المكان بعين فاحصة. اِقترب. ابتسمتا...

"مساء الخير! كيف الحال؟" قال مبتسما.

إيرينا نهضت مستقبلة بمرح: "أهلا، أهلا... هذا ريان وهذه ناتالي".

قالت ناتالي: "تشرفت بمعرفتك، ريان".

"وأنا كذلك"، أجابها.

حاول أن يتذكر إن كان قد رآها من قبل لكن وجهها لم يثر في ذاكرته شيئا واضحا. لفت انتباهه وشم صغير على صدرها. أخبرته إيرينا، وهي ترفع كأسا نصف ممتلئ: "أنت لا تعرف ناتالي... لكنها تعرفك جيدا... هي من حررت ترجمة روايتك إلى الإنجليزية". ثم ضحكت.

ريان: حقا؟ العام صغير جدا...

قبل أن يسأل أكثر أمسكت إيرينا بزجاجة النبيذ وهي تقول: "هل تسمح أن أملأ كأسك أيها الجميل؟".

"من فضلك!"، قال وهو يبادلها ابتسامة حاول أن يجعلها طبيعية.

في لحظة ما اقتربت من أذنه وهمست: "اشتقت إليك".

كان الهمس خفيفا، حرك شيئا في داخله. لم يجب، اكتفى برشفة نبيذ، وبنظرة سريعة إلى عينيها، ثم ابتسم قبل أن يدير وجهه نحو ناتالي التي كانت تراقبهما بصمت.

جلستهم لم تحمل شيئا خارجا عن المألوف، كلام عن العمل، عن مشاريع مؤجلة، عن الكتب والأفلام، عن أمور سطحية. يتبادلون

النكات، يرفعون الأنخاب لأجله مع التمنّيات بأن تنتشر قصصه في كل أنحاء العالم. بعد حوالي ساعة ونصف بدأ الملل يتسلل إلى الجلسة. إيرينا بدت متعبة. نظراتها تنطفئ شيئا فشيئا وكأن روحها تبتعد عن المكان. قالت وهي تضع كأسها جانبا: "يجب أن أعود إلى بيتي، أحس بتعب غريب".

ثم التفتت إلى ناتالي: "لا مشكلة أن تُكملي السهرة مع ريان أليس كذلك؟"

اِبتسمت ناتالي بهدوء: "بالطبع لا مشكلة".

قال لإيرينا: "لا يزال الوقت مبكرا".

نظرت إليه بوجه متعب، وقالت: "أعرف... لكنني مرهقة فعلا. هلا رافقتني إلى الخارج؟".

اعتذر ريان لناتالي، وتمنى لها سهرة ممتعة. خرج رفقة إيرينا من خوسي بار. تمشيا بضعة أمتار في صمت. توقفت هي فجأة، واستندت إلى الجدار.

"ما بك؟". سألها.

"لا شيء... لا تشغل بالك"، أجابت وهي تبتسم ابتسامة باهتة.

اِقتربت منه وعانقته لبضع ثوانٍ، شعر بأنفاسها الدافئة على عنقه قبل أن تبتعد قليلا، وتمد يدها إلى حقيبتها، أخرجت كيسا ورقيا صغيرا، وقالت: "هذه هدية عيد ميلادك... اِفتحها عندما تصل إلى البيت".

أخذ الهدية، نظر إلى عينيها يبحث فيهما عن شيء لا يعرفه.

"شكرا". قال.

هزت رأسها، ثم استدارت وقالت بصوت خافت: "ليلة سعيدة يا ريان". غادرت.

عاد إلى الشقة. لم يكن يفكر في شيء محدد ربما لأن التفكير كان سيقوده إليها، وهو كان يحاول أن يؤجل مواجهته مع صورتها داخل رأسه كأنه يريد أن يسبق القلق إلى عقله ليعطّل قدرته على إنتاج الأسئلة.

حاول ألا يفكر في القلق الذي كان باديا على وجهها، في ارتباكها، في صمتها. فجأة؛ تذكر الكيس الورقي، أخرجه من جيبه وفتحه. كانت فيه قلادة غريبة: سلسلة معدنية داكنة تتدلى منها قطعة معدنية سوداء على هيئة قرص في وسطه حجر أحمر يشبه عينا متوهجة. في الخلف، حين قلبها، وجد نقشا بالكاد يُقرأ: "كي لا يضيع قلبك مرة أخرى"، تحته ريشة. تسارعت أنفاسه. تذكر الطائر الأسود، صرخته في الفناء الخلفي، الإصبع الصغير الذي أشار إلى صدره وهو يقول: "لقد أكل الطائر الأسود قلبي".

14

"هناك من وُجد حتى يحميك من نفسك قبل أن يحميك من الآخرين."

كان يشعر بالتعب لكن النوم لم يأت. أخذ حماما دافئا، ترك الماء ينهمر على رأسه لوقت طويل، كأنه يريد أن يذيب الأفكار التي تحاول السيطرة عليه، ثم عاد إلى الفراش، استلقى، أطفأ الأضواء، وترك الليل يقترب منه. رن الهاتف.

نظر إلى شاشة الهاتف: إيرينا. تردد لثانية، ثم أجاب.

"هل ما زلت مستيقظا؟"، قالت بصوت ناعم و دافئ.

ريان: "لم أستطع النوم"

إيرينا: "هل تريد أن نكمل السهرة عندي؟".

صمت قليلا، ثم قال: "خلال لحظات سأكون معك".

كان يسير بسرعة وصور وأسئلة كثيرة تتكون، ثم تتلاشى في رأسه. كان يريد أن يعرف ما الذي تريده منه؟

في شقة إيرينا..

المكان شبه مظلم... إضاءة خافتة تنبعث من أباجورة في الزاوية، ومن شمعات صغيرة موضوعة على الطاولة، تنبعث منها رائحة خفيفة.

سمع موسيقى هادئة في الخلفية، نغمات بطيئة تتكرر كما لو أنها لحن واحد بلا بداية ولا نهاية. رأى ناتالي جالسة على الصوفا. لم يكن يتوقع وجودها. رفعت رأسها نحوه وابتسمت وهي تقول: "ظننت أن إيرينا مازحة حين قالت إنك ستقبل أن تأتي في هذا الوقت المتأخر".

نظرت إيرينا إليه، قالت وهي تتجه إلى المطبخ: "سأحضر شيئا نشربه… اجلس". جلس مقابل ناتالي، بينهما طاولة منخفضة على سطحها علبة معدنية سوداء مربعة الشكل، علبة سجائر، منفضة زجاجية، كأسا نبيذ فارغان.

"هل أعجبتك الهدية؟"، سألته ناتالي فجأة.

تجمد لثوان، ثم قال: "تقصدين القلادة؟... نعم، إنها غريبة".

أضافت مبتسمة: "الغريب مُغرٍ أحيانا، أليس كذلك؟ "

قبل أن يجيب، عادت إيرينا وهي تحمل زجاجة نبيذ وكأسين، قالت ناتالي بصوت آمر: "ثلاثة... نحتاج إلى ثلاثة كؤوس".

مرت دقائق من الدردشة عن المدينة ليلا، عن أغنية خوليو إغليسياس في خوسي بار، عن صدفة اليوم... لكن تحت هذه الكلمات، كان شيء آخر يتحرك: نظرات متبادلة بين الفتاتين، فترات صمت قصيرة، جمل مقطوعة، وابتسامات لا تكتمل.

في لحظة ما أخرجت ناتالي سيجارة طويلة ملفوفة من العلبة السوداء، أشعلتها، سحبت نفسا عميقا، ثم مررتها لإيرينا. رائحة وكثافة الدخان لم يسبق له أن رأى مثلها.

"تريد أن تأخذ نفسا؟"، سألته إيرينا وهي تمد السيجارة الملفوفة نحوه. تردد لبرهة، ثم أخذها منها. سحب الدخان من السيجارة بحذر. شعر بطعم حلو و حارق في الحلق، ثم بحرارة خفيفة تنتشر في رأسه. الدخان الكثيف جعله يكح.

ضحكت ناتالي بصوت هامس: "لا تقلق… لن تموت".

الوقت بدأ يتلاشى. أحس بثقل و تنمل في أطرافه مصحوبا بدوار خفيف. أصوات إيرينا وناتالي صارت تتداخل مع الموسيقى، مع صوت أنفاسه، مع خفقات قلبه.

"هل تثق بنا يا ريان؟"، سمع صوت إيرينا، كأنه يأتي من مكان بعيد.

"لا أعرف إن كنت أثق بنفسي أصلا"، قال وهو يضحك ضحكة باهتة.

"نحن هنا… لنساعدك على استعادة قلبك"، قالت ناتالي.

شُلت الضحكة في حلقه. نظر إلى إيرينا التي كانت تراقبه.

"أنتما تتحدثان بطريقة غريبة ". قال.

"ليست أكثر غرابة من قصتك"، أجابت ناتالي.

بدأت الأشياء من حوله تفقد حدودها، شعر كأن الغرفة تتنفس، الأضواء تتراقص، الجدران تتمدد وتنكمش، الأرض تميل قليلا.

"ما الذي..."، لم يكمل الجملة.

يتناهى إليه صدى همسات تتداخل مع بعضها البعض، تخترق أذنيه وتستقر في قلبه.

سمع ضحكة بعيدة. رأى انعكاس الضوء على عيني إيرينا. لم تكن عينا إيرينا التي يعرفها.

"لن نؤذيك"، همست.

لكن شيئا ما في نبرتها لم يكن مطمئنا.

لم يعد متأكدا من أن إيرينا وناتالي اقتربتا منه أم أن الأمر كله كان فقط في

رأسه. شعر بأيد تلمس ظهره، بأصابع تمر على صدره، بشفاه تقبله، وألسن تلعق جلده، بحرارة أنفاس في أماكن مختلفة من جسده، بصوت هامس عند أذنه يقول: "كل هذا من أجلك...".

لم يعد يعرف إن كان جالسا، مستلقيا، مقيّدا، أم حرا. لم يعد يعرف إن كان في بيت إيرينا أم في مكان آخر.

في لحظة ما ساد صمت كثيف. الموسيقى خفتت حتى كادت تختفي. الضوء صار داكنا مائلا إلى الحمرة. الهواء نفسه أصبح أثقل. سمع صوت ناتالي تتحدث بلغة لم يفهمها، كلمات متتابعة، كأنها تعويذة. شعر بحرارة في صدره كأن شيئا يتحرك بداخله، يتدافع، يبحث عن مخرج.

سمع صوت إيرينا، خافتا، مرتجفا: "هذا... أكثر من اللازم".

ردت ناتالي بحزم غريب: "لقد تأخرنا بما فيه الكفاية. أنت بدأت المهمة، وأنا جئت لأتمها".

"هو ليس..."، قالت إيرينا.

الحديث كان يصله مجزأ لكنه واضح بما يكفي ليفهم أنه أسير في كابوس يصعب الخروج منه.

"لا وقت للشك الآن"، قالت ناتالي.

"الكل ينتظر، الظل الأخير يراقب، و أوراق أنوكسي لم تكن يوما مخطئة".

سمع اسم أنوكسي، فارتج شيء في داخله.

همست ناتالي بصوت لا يشبه صوتها: "انظر... هذا ظلّك... عانقه".

إيرينا قالت بصوت منكسر: "لا تصدق أي شيء.. كل هذا يقع داخل عقلك".

ردت ناتالي: "الآن لا رجعة".

في تلك اللحظة شعر بحرارة تحيط بعنقه، تذكر فجأة أنه علق القلادة دون وعي، قبل أن يخرج من البيت. الحجر الأحمر في وسطها صار متوهجا، كأن نارا اشتعلت داخله.

إيرينا كانت تردد بصوت منكسر: "لا تصدق ما تراه.. استيقظ الآن".

للحظة قصيرة جدا رأى صورا تتتابع في رأسه. الفناء الخلفي لبيت عائلته، جثة أبيه المشوهة، ظل الطائر العملاق يغطي جسمه...

كان يرى نفسه وهو طفل يصرخ: "لقد أكل قلبي..."

شيء ما كان يتكون داخل صدره، يهتز ببطء، ينبض، يكبر شيئا فشيئا، يصعد إلى الأعلى ببطء، يحاول الخروج.

سائل أسود لزج كان يسيل من فمه ببطء قبل أن تخرج معه كرة من الريش الأسود، وتتدحرج بعيدا عن جسده. كانت الكرة تكبر تدريجيا كلما اهتزت كأنها تنبض، تخرج منها فقاعات، تنفجر، يتطاير منها رذاذ أسود يتلاشى في الهواء. ثم رأى شيئا آخر: غرفة مظلمة مليئة بوجوه مموهة، أقنعة، أجساد عارية، أيد مرفوعة، أصوات جماعية تصدح بلغة لم يفهمها.

في تلك اللحظة شعر بأن الكرة رغم انفصالها عنه، كانت لا تزال مرتبطة به بشكل غير مرئي. كل خفقة تصدر عنها كانت تحدث تموجات خفيفة تتلاشى في صدره. كان هذا الكيان يختبر حدوده و يحاول أخذ شكل ما. كانت تخرج منها خيوط لزجة تتبع نظاما غامضا كأن هندسة خفية تدير مساراتها. بدأت الخيوط تتشابك، تتصلب، تتحول إلى كتلة تتنفس.

الكتلة كانت تتمدد بتسارع، ثم تتخذ شكلا أوليا لهيكل شبه بشري، شكل لا يزال غير مكتمل لكنه يتجه نحو هيئة مألوفة على نحو مخيف.

ملامح الكائن الغريب بدأت تتشكل مع كل ثانية، كان يصبح أكثر وضوحا.

أول ما تشكّل كان طبقة كثيفة من الريش الأسود اللامع يتحرك مع تنفسه، ينفتح وينغلق، ثم برز الرأس، رأس طائر بمنقار طويل كاسر. لم تكن له عينان، فقط حفرتان متوهجتان. و على جانبيه امتد جناحان أطول من الجسد نفسه، ينبسطان ببطء كأنهما يسحبان الهواء إليها ليصنعا دوامة باردة تلفّ المكان. عندما تشكل وقف، رفع رأسه ببطء، رفع جناحيه وكأنه يستعد للطيران، قبل أن يصدر صوتا عميقا مرعبا تزامن مع هبة ريح قوية نسفت كل المشاهد التي كانت تمر أمام عينيه.

أغمض ريان عينيه ليجد نفسه وسط ظلام وصمت ممل إلا من صوت نبض قلبه، وأنفاسه المتقطعة.

15

"أعيش في الخيال أكثر مما أعيش في الواقع... هذا جنون حقا... هذا أنا، ولا أريد أن أتغير"

اِستيقظ ريان ببطء، وهو يشعر بثقل غريب في رأسه.

كان مستلقيا على الأرض قرب الطاولة، رفع رأسه بتعب. كانت إيرينا مستلقية على الصوفا تغطي نصف وجهها بذراعها، بينما جلست ناتالي قربها تضحك دون سبب واضح كأنها ما زالت تعيش بقايا تلك الليلة الغريبة.

مرّت ثوانٍ من الصمت قبل أن تقول ناتالي وهي تنظر إلى ريان بابتسامة ساخرة:

- "في النهاية… هل أكسي هي التي ماتت وتمزق جسدها، أم صديقتها؟".

أغلق ريان عينيه للحظة. حتى الآن لم يكن متأكدا إن كان ما رآه خلال الليل مجرد هلوسة، أم شيئا آخر.

قالت إيرينا بصوت هادئ:

- "أعتقد أن روايتك بدأت تنضج أخيراً… لهذا تركتك وحدك داخل عوالمك حتى لا أوقظك".

ضحكت ناتالي وهي تشعل سيجارة:

- "لكن يجب أن تعدني بشيء… عندما تنتهي من روايتك هذه، أنا من سيترجمها… أنا مستعدة أن أوقّع العقد من الآن."

ابتسم ريان بصعوبة، ثم نظر حوله إلى الفوضى المنتشرة في الشقة، الكؤوس الفارغة، الأوراق المبعثرة، والستائر التي تتحرك ببطء مع هواء الصباح.

سألت إيرينا وهي تنهض عن الصوفا:

- "أين سنفطر؟"

لبث ريان صامتا ثواني قليلة كأنه يحاول العودة إلى الواقع، ثم قال:

- "أعرف مكانا جميلا".

و هو ينطق العبارة، لم يستطع التخلص من ذلك الشعور الثقيل بأن شيئا ما من كابوس الليلة الماضية لا يزال عالقا في الواقع.